



شريف شوقي

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شيء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هـذا الزمن الذى طغت فيـه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهـذا النـوع من الحب .. نحتـاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرّك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

١ ــ عودة الغائب ..

أمسك (وجدى) سمّاعة الهاتف ، وقال فى صوت يحمل أشدّ نبرات الضيق :

ــ حفلة .. أية حفلة ؟.. أنتِ تعرفين أن وقتى ضيق للغاية يا (نجلاء) .. ولا أملك ما يسمح لى بالذهاب إلى أعياد الميلاد ..

نعم .. أعرف أننى وعدت بالذهاب ، ولكننى مشغول للغاية .. لدى بعض الأعمال الهامة ، ستحتاج منى إلى البقاء فى مكتبى ، حتى ساعة متأخرة من الليل ..

لا .. لا يمكن تأجيلها ..

ــ من فضلك يا (نجلاء) ، خذى أنت الولد معك إلى هذا الحفل ، واعتذرى لـ (سميحة) هانم وزوجها بالنيابة عنى ، وإذا وجدت أمامى فسحة من الوقت ، فسوف ألحق بكما هناك .

وأعاد سمّاعة الهاتف ، وهو يزفر قائلًا :

ـ تبًا لهذه المناسبات والمجاملات الفارغة .. ألا تنتهى أبدًا ؟.

إنه لا يبغض شيئًا فى هذه الدنيا ، قدر بغضه لتلك الحفلات والدعوات ، التى تأتى إليه من آن لآخر ، بمناسبة وبدون مناسبة ..

عيد ميلاد ابنة (سميحة) هانم .. عيد زواج فلان وفلانة .. دعوة للغداء هنا ، ودعوة للعشاء هناك .. وحضور حفل افتتاح لإحد المصانع الجديدة ، أو حتى متجر صغير للملابس ..

وهو مضطر دائمًا للمجاملة ، والابتسام ، والتظاهر بالمرح واللطف مع من يدعونه أو يدعوهم ، مستسلمًا لحالة متكرِّرة من النفاق الاجتماعى السقيم ..

ولكن ماذا يفعل ؟.. إنه شخصية مرموقة فى (بورسعيد) ، وعلاقاته الاجتماعية تدخل كجزء من طبيعة عمله ، وعلاقاته برجال الأعمال والتجار فى المدينة ، فمصنع الزجاج والبلّور ، الذى يمتلكه ، يدخل فى منافسة شديدة ، مع عدد من المصانع الأخرى ، المنتشرة فى مناطق مختلفة من الجمهورية ، وعلى الرغم من جودة إنتاجه العالية ، التى دفعت به إلى التوسع فى التصدير إلى الأسواق الخارجية ، بعد أن اكتسب شهرة لا بأس بها فى الأسواق الداخلية ، وأصبح مصنعه

واحدًا من أكبر مصانع الزجاج والكريستال فى (مصر) ، إلا أنه لا يستطيع أن يتجاهل قيمة العلاقات الشخصية ، والمجاملات الاجتماعية ، والدور الذى تلعبه فى تعزيز نجاحه كرجل أعمال ، فضلًا عن تأهّبه لترشيح نفسه عضوًا فى المجلس المحلى للمدينة ، وما يطمح إليه مستقبلًا من أن يكون عضوًا فى مجلس الشعب ، وهو طموح سياسى طالما حلم به ، منذ كان طالبًا فى الجامعة ، وربما بما يتجاوز كثيرًا طموحه المادى ، الذى حقّقه عن طريق مؤسسة الصناعات الزجاجية ، التى أصبح يمتلكها ..

لقد حققت الحياة لـ (وجدى) الكثير من الآمال والأحلام التى تمناها ، فقد تمكن بكدّه وعرقه وكفاحه لسنوات طويلة ، فى أثناء الدراسة وبعدها ، من تحويل مصنع الزجاج الصغير ، الذى يملكه خاله فى بورسعيد ، إلى مؤسسة صناعية كبيرة ..

وعندما توفى خاله ، تاركًا هذا المصنع ، باعتباره وريثه الوحيد ، هو وأخته (هالة) ، كان (وجدى) قد نجح فى القفز بهذا المصنع قفزات هائلة ، بفضل ذكائه وروحه المتقدة فى العمل ، والسعى وراء مواطن النجاح .

وعزّز هذا النجاح المادى بمكانة اجتماعية مرموقة ، عندما اقترن بـ (نجلاء نور الدين) ، ابنة (نور الدين عزمى) ،

محافظ بورسعيد السابق ، وهو بدوره من أسرة ذائعة الصيت ، ذات جذور عريقة ، وعلى الرغم من أنه لم يعش قصة حب حقيقية مع زوجته قبل الزواج ، إلا أن هـذا الحب سرعان ما وجد طريقه بينهما بعد زواجهما ، الذى دام حتى الآن عشر سنوات كاملة ، قرّبت كثيرًا بين أفكارهما وطباعهما ، وازداد التفاهم بينهما ، على الرغم من بعض الصعوبات ، التى حالت دون ذلك فى البداية ، فقد ظلت هناك عقدة تحكم (وجدى) فى علاقته بزوجته ، على الرغم من ثرائه المادى الكبير ، وهى إحساسه دومًا بأنها تتميز عليه اجتماعيًا وطبقيًا بحكم النشأة ، وربما يرجع ذلك إلى نشأته الأولى ، التى كانت تتميز باليتم والفقر ، وألوان عديدة من المهانة والحرمان ، طالما حاول نسيانها واقتلاعها من جذور ذكرياته دون جدوى ، فقد ظلت ذكرى هذه الأيام المريرة والكريهة فى نفسه باقية ، وتشكّل جزءًا من إصراره على النجاح والثراء ومعاداة الفقر ، والتمرد على كل ما عاشه فى طفولته وصباه ، وعلى الرغم من أن (نجلاء) لم تحاول أبدًا أن تظهر له هذا التميز ، إلا إذا حدث ذلك عرضًا أو دون قصد ، إلا أن هذا كان يثيره دائمًا ،

ويحاول تعويضه عن طريق التباهى بعصاميته ونجاحه المادى أحيانًا ، وأحيانًا أخرى بالقسوة والغلظة فى معاملتها تعويضًا عن ذلك الإحساس .. وقد أدى ذلك إلى مشاكل عديدة فى حياتهما فى البداية ، كادت تقودهما ذات يوم إلى الطلاق .

لكن سرعان ما تراجعا عن هذه الفكرة ، عندما تبينا هولها بالنسبة لهما .. فعلى الرغم من كل شىء ، إلا أن أحدهما لم يكن يستطيع أن يستغنى عن الآخر ..

وهكذا وطّدا نفسيهما على احتواء هذه الأزمات ، التى تنشأ بينهما من آن لآخر ، بالعمل على تحقيق المزيد من التقارب النفسى والتفاهم بينهما ، وأصبحت (نجلاء) من ناحيتها حريصة على عدم تحريك هذه العقدة النفسية ، التى تحكم (وجدى) ، وتخرجه عن طبيعته المألوفة أحيانًا ، وأصبح (وجدى) أيضًا أكثر حرصًا على عدم الانسياق وراء هذه العقدة الدفينة .

وأنعم الله عليهما بطفل جميل ، عزّز هذا الحب والتقارب ، الذى جمع بينهما ، ولم يعد باقيًا من طموحاته وأحلامه القديمة سوى ذلك المستقبل السياسى ، الذى أعد نفسه له .. وعلى الرغم من أن رجل المال والصناعة لا يحبذ كثيرًا الانخراط فى

العمل السياسى ــ فلكل منهما مجاله ــ إلا أن (وجدى) كان يحلم دائمًا بأن يستأثر بالاثنين .. لقد آلى على نفسه ــ منذ الصغر ــ أن يحوز كل أسباب القوة والثراء ، وكان يرى فى العمل السياسى ما يمنحه القوة والنفوذ ، اللذين يسعى إليهما ..

ومع كل ما حققه من ثراء مادى ، ومركز اجتماعى ممتاز ، ونفوذ فعلى فى مدينة (بورسعيد) ، إلا أنه لم يتراجع عن طموحه السياسى أبدًا ..

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً ببضع دقائق ، وكان (وجدى) قد بذل جهدًا كبيرًا فى إنهاء عدد من الأعمال الهامة ، الخاصة بالمؤسسة ، وبعد انصراف عدد من الأشخاص من مكتبه ، قام بإجراء اتصال هاتفى أخير بإحدى الشركات ، التى يتعامل معها ، ثم استرخى فى مقعده ، وقد أخذ منه التعب مبلغه ، ونظر فى ساعته وهو فى حالة من الخمول ..

كان الوقت ما زال كافيًا ، ويسمح له بحضور حفل عيد الميلاد ، لكنه بالإضافة إلى عدم رغبته فى حضور هذا الحفل منذ البداية ، كان مرهقًا ، وغير قادر على ممارسة تلك المجاملات ، التى طالما اضطرته الظروف إلى القيام بها ..

إن أقصى ما يستطيع عمله الآن ، هو أن يتسلل بسيارته

إلى المنزل ، لينعم بحمام دافئ ، ثم يدس نفسه فى الفراش ، منتهزًا خلو المنزل من (نجلاء) و (وائل) ابنه ، فلو أتيح لهما أن يلتقيا به ، قبل أن يستغرق فى النوم ، فإنه لن ينجو من تأنيب (نجلاء) له ، لعدم حضوره معها إلى الحفل كما وعد ، كما سيكون مضطرًا إلى تلك المداعبات والروايات ، التى يحكيها لـ (وائل) قبل نومه ، كما عوّده ، وهو غير مهيأ لذلك الآن ..

وبالفعل نهض (وجدى) من مقعده ، مقاومًا حالة الاسترخاء التى تمتلكه ، ليصلح من رباط عنقه ، ثم تناول سترته من فوق المشجب ، استعدادًا لمغادرة المكتب ، لكنه سمع عدة طرقات على الباب ، قبل أن يتهيأ للانصراف ، ووجد سكرتيرته تدلف إلى الداخل ، وعلى وجهها بعض علامات الانزعاج ، وهمست له قائلة :

ــ هناك شخص يطلب مقابلتك بإلحاح يا (وجدى) بك .

وسألها قائلًا :

ــ من هو ؟

وأجابته قائلة :

ــ لقد رفض ذكر اسمه .

نظر إليها بدهشة ، قائلا :

ـ حسنًا .. وما الذى يدعوك إلى الانزعاج هكذا ؟

ترددت قليلًا ، قبل أن تقول :

ـ إنه يرتدى ملابس رثة ، وتبدو عليه معالم الشر والقسوة ، برغم تقدمه فى العمر ، ولقد صاح فىّ بطريقة خشنة ، وتهيأ لى فى لحظة أنه سيقوم بصفعى ، عندما أصررت على عدم السماح له بمقابلتك ، دون موعد سابق ، ودون أن يوضح لى اسمه ، وهدفه من المقابلة ، ولم أجد بدًّا من التظاهر باستئذانك ، قبل السماح له بالدخول ، لكى أبلغك الأمر .. هل تحب أن أطلب الأمن ؟

سألها (وجدى) :

ـ ربما كان أحد أهالى المدينة .

قالت سكرتيرته فى ثقة :

ـ كلا .. إنه يبدو غريبًا .. ولهجته أيضًا لا تدل على أنه من أبناء (بورسعيد) .

وجدى :

ـ حسنًا .. دعيه يدخل .

وترددت قائلة :

ـ ولكن يا أستاذ (وجدى) .

أومأ برأسه قائلًا :

ـ قلت لك دعيه يدخل .

نظرت إليه ومعالم التردد واضحة على وجهها ، وهى تقول مستسلمة :

ـ حسنًا .. هل أرسل لك أحد رجال الأمن ؟

ـ قال لها (وجدى) ، وهو يعود إلى مقعده وراء المكتب :

ـ لا .. لا داعى لذلك .. إذا احتجت أحدًا من الأمن فسأطلبه بنفسى .

وغادرت السكرتيرة المكتب ، وهى مازالت قلقة .

وبعد قليل فُتحَ باب الغرفة ، ليدلف منه أحد الأشخاص ، حيث وقف فى منتصف الغرفة ، ليقول بصوت واهن ، ولكنه لا يخلو من الخشونة والحماس :

ـ أوحشتنى يا (وجدى) .

كان الرجل يرتدى ملابس رثة للغاية ، وتكشف ملامح وجهه المترهلة ، وشعره الأبيض ، عن تجاوزه الستين من العمر ببضع سنوات ، وإن بدا بقامته المديدة وصلابة عوده ، محتفظًا بشىء من بقايا الشباب الراحل ..

وأحسَّ (وجدى) برجفة تسرى فى جميع أجزاء جسده .
لدى رؤيته لذلك الشخص ، برغم عدم تعرّفه ؛ لكن شيئًا ما جعله يرتجف ، وهو يرى هذا الرجل الطاعن فى السن يقترب منه ، ويتحدث إليه على هذا النحو ، وأخذ يحدّق فيه بتمعّن ، دون أن يتحرك من فوق مقعده ..

كان شعورًا غريبًا ، ذلك الذى تملكه ، عندما وجد هذا الرجل يقف أمامه مباشرة .. شعورًا بالخوف والرهبة والاضطراب فى آن واحد ، ونظر إليه الرجل قائلًا :

— (وجدى) .. ألا تعرفنى ؟

وبدت له هذه الجملة الأخيرة كما لو كانت تبعث إليه بنداء خفى ، وتدفعه دفعًا نحو ذلك الرجل ، بالرغم من مخاوفه منه ..

نعم إنه يذكر بعضًا من هذه الملامح ، ويعرف ذلك الصوت ، برغم ما أضفته عليه السنون من تغيرات ..

لقد بدا له ذلك الصوت وكأنه يأتى إليه من ماض سحيق ، طالما حاول أن ينساه .

وعاد الرجل يقول :

— (وجدى) إننى والدك .. هل نسيتنى ؟

ظل (وجدى) جامدًا فى مكانه ، وهو يحدق فيه متأملًا ..
نعم .. إنه والده .. لقد أحسّ بذلك منذ أن رآه .. وكيف يتسنى

له أن ينساه ، وهو الذى حاول دائمًا أن يمحوه من ذاكرته ، ومن حياته ؟..

وكيف يتسنى له أن ينسى الرجل ، الذى ذاق معه وبسببه شقاء الطفولة ومرارة الصبا ؟..

كيف يتسنى له أن ينسى ذلك الرجل ، الذى تسبب فى عذاب أمه وآلامها ..

الأم التى أحبها أكثر من أى شىء آخر فى حياته ، والمرأة الوحيدة التى بكى من أجلها فى طفولته وصباه ورجولته ..

أمه التى رحلت عن هذه الدنيا ، دون أن تفارقها تلك النظرة الحزينة البائسة ، التى طالما حاول أن يمحوها من عينيها ، والتى طالما حاولت أن تخفيها عنه وعن أخته ، والتى كان يعرف جيدًا أنها من آثار الماضى ، الذى خلفه أبوه فى حياتها ، والتى لم يستطع بكل ثرائه ، وبكل ما حاول أن يقدمه لها من مباهج الدنيا ، أن يمحوها من عينيها الصافيتين الحنونتين ..

تُرى ما الذى بعث هذا الرجل من جديد فى حياته ؟.. ولماذا لم يبق قابعًا فى غياهب الماضى ، الذى يحاول أن ينساه ؟.

ما الذى أتى بـ(منصور الدهشورى) هذه الليلة إلى مكتبه ، بعد خمسة وعشرين عامًا ، لم يره خلالها مرة واحدة ؟
لماذا ؟

* * *

٢ — مرارة السنين ..

تراجعت لهفة الأب ، أمام نظرات ابنه الجامدة ، وتعبير وجهه الصامت ، ولكنه بقى محتفظًا بنظرة الشوق فى عينيه ، وقال له (وجدى) ، دون أن يتخلى عن جموده ، فى لهجة قاسية :

— لقد ظننا أنك قد مت .

قال الأب ، دون أن يعبأ بما فى نبرات ابنه من قسوة :

— ولكننى كما ترى ، هأنذا ما زلت حيًا أمام عينيك .

ظل ذلك التعبير الجاف مرتسمًا على وجه الابن ، وهو يقول :

— وما الذى جعلك تتذكرنى ، بعد كل هذه السنوات الطوال ؟

اصطنع الأب ابتسامة باهتة على وجهه ، وهو يقول :

— ومن قال إننى قد نسيتك ؟.. إنك لم تغب عن بالى ، أنت وأختك ، لحظة واحدة ، وعندما سنحت الفرصة لم أستطع مقاومة اشتياق لرؤيتكما .

قال الابن بلهجة تهكمية :

— لم تستطع مقاومة اشتياقك ؟!.. إنك لم تتذكرنا حتى بخطاب واحد ، طوال هذه السنين ..

لقد كنت واثقا أنك لو كنت حيًا ، فلابد أنك قد نسيت أن لك أبناء .

قال الأب بانفعال :

— أيًا كان الأمر ، فلا يحق لك أن تحدث أباك على هذا النحو .

وردّ عليه (وجدى) بانفعال مماثل ، وهو ينهض من فوق مقعده قائلًا :

— أبى ؟!. أى أب ذلك الذى تتحدث عنه ؟.. إننى بصعوبة استطعت تبيّن ملامحك ، بعد أن ضاعت معالمها من ذاكرتى ، وإن كنت لم أنس تلك القسوة ، التى كنت تعاملنا بها أنا وأختى ، عندما كنا أطفالًا ، وشراستك مع أمى ، التى تحمّلت من أجلنا كل شرورك ، وأنت تلقى عليها بمسئوليتنا كاملة .. المسئولية التى كان يتعين عليك تحمّلها ، باعتبارك رب أسرة ، لو كنت تدرك معنى هذه الكلمة حقًا ..

ولكنك ألقيت بالمسئولية كاملة على كاهلها ، ولم يكن لها حتى حق الشكوى ، وإلا ذاقت منك ذل الضرب والمهانة ..

أمى التى ارتضت لنفسها العمل فى المنازل ؛ لكى تجمع لنا قوت يومنا ، وماتت وفى عينيها نظرة الحزن ، التى زرعتها فى حياتها وحياتنا .

قال الأب بنبرة حزينة ، وهو يخفض عينيه :

— لقد كانت أمك بالفعل امرأة عظيمة ، تحمّلت الكثير منى لأجلكما ..

هذه حقيقة لا يمكننى أن أنكرها .

ثم رفع وجهه إلى ابنه ، قائلًا :

— وهأنذا أرى أنها قد نجحت ، فى أن تجعل منك رجلًا عظيمًا ، لك مكانتك .

قال الابن ساخرًا .

— نعم .. فى الوقت الذى لم تكن أنت موجودًا فيه بيننا .

وردّ عليه الأب بلهجة مستكينة :

— عندما ابتعدت عنكم تركتك كبيرًا ، بالقدر الذى يتيح لك معرفة أين كنت ، طوال هذه المدة .

أجابه الابن ، وفى صوته نبرة استعلاء :

— نعم .. أعرف .. كنت فى السجن ، حيث قضيت به خمسة عشر عامًا ، لاتجارك فى المخدرات .. ولكنى أعرف أيضًا

أنك قضيت قبلها ثلاث سنوات كاملة بعيدًا عنا ، لا نعرف أى شىء عن أخبارك ، ولم تحاول أن تتعرف أى شىء عن أخبارنا ، قبل أن يُقبض عليك وتقدّم للمحاكمة ..

لقد ذقنا على يديك مرارة الحرمان ، وقسوة الطباع ، ثم انتهى الأمر بأن ألحقت بنا العار .

قال الأب بحرارة :

— لم أكن أعرف أنك تكرهنى إلى هذا الحد .

هدأت حدة انفعال الابن قليلًا ، وهو يقول :

— وما الذى كنت تنتظره منى ، بعد كل تلك السنوات ؟.. إننى لم أعرف معك حنان الأب ورعايته ، وهذا أمر لا يغتفر .. فى البداية أقمت حاجزًا بينى وبينك ، بسبب تلك القسوة ، التى كنت تعاملنا بها ، وبعد ذلك ابتعدت عنا نهائيًا ، ودفعت بنا حتى إلى الإقلاع عن زيارتك فى السجن ؛ بسبب تلك الطريقة الفظة ، التى كنت تقابلنا بها ، والتى كانت تعود بسببها أمى إلى المنزل ، والدموع تتساقط من عينيها ، إلى أن أقسمت علينا يمينًا بألا تأتى لزيارتك مرة أخرى ، وأخبرتها أنك تريد أن تقطع صلتك بنا بصورة مطلقة ؛ لأنك تكرهنا ..

كم كنت أحسد الأطفال فى سنى ، وأنا أراهم فى صحبة

آبائهم .. كم كنت أتألم وأنا أرى زملائى محاطين برعاية والديهم ، فى الوقت الذى لم أكن أعرف فيه كيف أجيب على سؤالهم .. أين والدك ؟..

وفى النهاية اضطررنا ، أنا وأمى وأختى إلى أن نرحل إلى هذه المدينة ، (بورسعيد) ؛ لنقيم عند خالى ، بعيدًا عن أى ذكرى تربطنا بك ، وأصبحت بالنسبة لنا غير موجود .

قال الأب :

ــ ولكن هأنتذا ترى أننى مازلت موجودًا ، سأبقى موجودًا بالنسبة لك .. لم أمت ، برغم أننى أعرف جيدًا أنك كنت تتمنى موتى .

قال (وجدى) بامتعاض .

ــ وما الذى تريده منى الآن ؟

الأب :

ــ انظر إلىّ جيدًا ، وستعرف ماذا أريد ، انظر إلى تلك الثياب الرثة والجسد الواهن .

قال الابن بنبرة قاسية :

ــ فهمت .. لقد جئت ، لأنك بحاجة إلى نقود .

وتوجه نحو الخزانة الصغيرة ، الموجودة فى أحد أركان الغرفة ؛ ليفتحها ، ولكن الأب قال :

ــ ما الذى يمكنك أن تدفعه لى .. ألفًا .. ألفين .. ثلاثة ؟

قال الابن ، وهو مستمر فى فتح الخزانة ، دون أن يلتفت إليه .

ــ ليس فى هذه الخزانة الآن سوى ثمانمائة جنيه ، أعتقد أنها تكفيك فى الوقت الحاضر .

لكن الأب اعترض قائلًا :

ــ وفر نقودك .. إننى بحاجة إلى عمل ..

واستدار إليه الابن فى حدة ، قائلًا :

ــ عمل ؟!.. أى عمل يمكننى أن أوفره لك الآن ؟

أجابه الأب فى هدوء :

ــ أى عمل يتناسب مع عمرى ، ويتيح لى أن أحصل على النقود ، التى أريدها ، من كدّى ، لا من جيبك الخاص .

قال (وجدى) فى سخرية :

ــ ألم تفكر فى العمل الشريف إلا الآن ؟

وفى تلك اللحظة طرقت السكرتيرة باب الحجرة عدة طرقات ، قبل أن تدلف إلى الداخل ، وما أن خطت داخل الغرفة حتى استقرت عيناها على الأب ، ثم ما لبثت أن أخذت تنقّل نظراتها بينه وبين الابن ، وكأنها تتساءل ، بينها وبين

نفسها ، عما يمكن أن يربط بين رجل أعمال ثرى مثل (وجدى) ، وذلك الرجل المتقدم فى السن ، الشرس الطباع ، الرث الثياب ، إلى الحد الذى يطيل بينهما الحديث كل هذا الوقت ..؟

وكانت معالم القلق واضحة على وجهها ، وهى تنظر إلى (وجدى) قائلة :

ـ عفوًا يا (وجدى) بك .. ولكن ..

قال (وجدى) مقاطعًا :

ـ يمكنك الانصراف يا (ابتسام) .

وعادت تنظر إلى الأب ، دون أن تفارقها نظراتها القلقة ، وهى تقول :

ـ هل أنت واثق أنك لن تحتاج إلىّ فى شىء يا (وجدى) بك ؟

وكأنما نبهت نظراتها القلقة هذه (وجدى) إلى خطورة الوضع ، بالنسبة له ، فماذا لو تكشّفت حقيقة الرابطة ، التى تربط بينه وبين رجل ، سبق أن أُودع السجن متهمًا بالاتجار فى المخدرات ؟..

أى ضرر يمكن أن يلحق به ، إذا ما كشف العاملون فى

الشركة ، وأهل المدينة ، أنه ابن لأحد أرباب السوابق ، وهو الذى جاهد ، لإخفاء هذه الحقيقة تمامًا ، عن زوجته وابنه ، والجميع ، طوال الأعوام الطويلة الماضية ..؟

الكل يعرف أن والده قد توفى منذ سنوات بعيدة ، وأنه كان رجلًا فاضلًا ذا سمعة طيبة ، وقد ساعده خاله فى إخفاء كل ما يتعلق بماضى أبيه ، كما أنه من ناحية كان يعمد دائمًا إلى إنهاء أى حديث ، يمكن أن يتعلق بماضيه ، أو يدور حول أبيه ، على نحو قاطع سريع ..

والآن ، وبعد أن رأته سكرتيرته الفضولية ، فما الذى يمكن أن يقوله لها عن هذا الرجل ؟..

لو عرف الناس هنا حقيقة أبيه .. لو علموا أنه ما زال باقيًا على قيد الحياة ، وأنه سبق أن أودع السجن ، متهمًا فى قضية مخدرات ، فإن هذا يعنى تدمير حياته الاجتماعية ، وعلاقته الأسرية ، ومستقبله السياسى الذى خطط له ..

سيصبح هذا كارثة حقيقية بالنسبة له ، ويجب أن يعمل على منعها ، بأى حال من الأحوال .

وبدا صوته غاضبًا ، وهو يصيح فى سكرتيرته قائلًا :

ـ قلت لك : لا أحتاج إليك فى أى شىء ، ويمكنك الانصراف .

أخرجها صوته الغاضب من حالة القلق والفضول ، التى سيطرت عليها ، فالتفتت إليه قائلة ، وكأنها تعتذر :

ــ حسنًا .. حسنًا .. كما تريد يا (وجدى) بك .

ثم استدارت مغادرة المكتب ، فى حين التفت الابن إلى أبيه ، قائلًا فى انفعال :

ــ هل أخبرت أحدًا فى هذه المدينة بحقيقة الصلة ، التى تربط بيننا ؟

قال الأب ، وهو يبتسم فى مرارة :

ــ تقصد حقيقة أنك ابنى وأننى أبوك ؟.. اطمئن لم أخبر أحدًا بذلك ..

إننى مقدّر بالطبع حقيقة مركزك الاجتماعى الآن ، ولا أرضى أن أسبب لك أى ضرر .

هدأ انفعال (وجدى) قليلًا ، وهو يقول :

ــ حسنًا سأجهز لك مسكنًا فى (القاهرة) ، أو فى أى مكان تريده ، بعيدًا عن (بورسعيد) ، وسوف يصلك منى ، راتب شهرى كافٍ بطريقة أو بأخرى .

لكن الأب قال فى إصرار ، وقد تبدلت ملامحه :

ــ قلت لك لا أريد منك نقودًا .. أريد أن أحصل على عمل ، ويتعين عليك أن تدبره لى .

نظر إليه الابن فى ضيق ، قائلًا :

ــ لا أدرى سر إصرارك على هذا ، ما دمت مستعدًّا للتكفل بأمر معيشتك .. منذ متى ترفض الحصول على النقود بوسيلة سهلة ؟

أجابه الأب بلهجة ساخرة ، قائلًا :

ــ منذ أن تنبهت إلى قيمة العمل الشريف .

ردّ عليه الابن ، بنفس نبرة السخرية اللاذعة :

ــ لقد تنبهت إلى ذلك متأخرًا جدًّا .. وعلى كلٍّ إذا كنت مصرًّا على مسألة العمل هذه ، يمكننى أن أدبر لك أية وظيفة ، ولكن فى أى مكان آخر ، بعيدًا عن (بورسعيد) ، وبشرط ألا تخبر أحدًا بأنك أبى .

قال الأب فى لهجة حاسمة .

ــ بل أريد هذه الوظيفة هنا .. فى هذه المدينة .. فى (بورسعيد) .

تطلّع إليه (وجدى) بدهشة ، مقترنة بضيق واضح ، وهو يقول :

ــ ولماذا هنا بالذات ؟

أجابه الأب فى هدوء :

ــ لأننى أريد أن أكون قريبًا منك ، ومن (مديحة) أختك ، ما تبقى لى من العمر .

قال الابن متهكمًا .

ــ ترى ما سر هذا الحنان المفاجئ ، الذى هبط عليك نحونا هكذا دفعة واحدة ؟ .. أخيرًا استيقظت عاطفتك الأبوية ، بعد طول سبات وتذكرت أن لك أبناء ، يتعين عليك أن تبقى إلى جوارهم ما بقى لك من العمر ؟

ثم تبدلت لهجته فى قسوة :

ــ على كل حال نحن نشكر لك عطفك السامى ، ولكن تأكد أننى وأختى (مديحة) سنكون أسعد حالًا ، لو بقيت بعيدًا عنا ، ونسيت أن لك أبناء ، كما نسينا نحن أن لنا أبا .

وهنا زمجر الأب ، قائلًا فى شراسة ، وقد تبدلت ملامحه :

ــ كفى .. لن أسمح لك بكلمة أخرى .. اسمعنى جيدًا .. لقد جئت لأبقى وأعمل فى هذه المدينة .. إنك لا تعرف ولم تجرب أية ظروف مررت بها ، وأى تعب لقيته من هذه الحياة .. لقد آن لى أن أستريح ، وأبدأ حياة جديدة .. ربما جاء هذا فى سن متأخرة كما تقول ، ولكنى مصمم على أن أبدأ هذه الحياة الجديدة ، وأن أكون بجوارك أنت وأختك ، خلال السنوات الباقية من عمرى . أعترف أننى لن أستطيع أن أعوضكما

عن عاطفة الأب ، التى افتقدتماها معى ، خاصة بعد أن كبرتما ، وأصبح لكل منكما حياته الخاصة المستقلة . كما أعترف بأننى أنا نفسى غير واثق بقدرتى ، على منحكما هذه العاطفة المفقودة . لكنكما فى النهاية ابناى وأنا بحاجة إليكما .. بحاجة إلى تعويض كل تلك السنين ، التى فارقتكما فيها .. أرجوك ألا تحرمنى من هذا يا (وجدى) .

قال الابن فى جمود :

ــ وإذا رفضت ؟

واجهه الأب بجمود مماثل قائلًا :

ــ إذن سأخبر كل مخلوق فى (بورسعيد) بأننى أبوك ، وأننى لم أمت ، وأننى كنت مسجونًا فى قضية مخدرات .. سأجعلهم يعرفون حقيقة الوجيه الأمثل .. الرجل الذى يشار إليه بالبنان فى مدينتهم ، ويسعى الجميع إلى خطب وده .. إننى أعرف جيدًا مدى حرصك على مظهرك الاجتماعى ، وسعيك وراء الترشيح كعضو مجلس محلى منتخب ، فى مدينة (بورسعيد) .

وأنا قادر على أن أدمّر كل هذا .

ارتجف (وجدى) ، لدى سماعه هذا برغم محاولته التماسك وقال :

— هل تهدّدنى ؟

أجابه الأب فى خشونة :

— نعم .. يمكنك أن تعتبر هذا تهديدًا .

رضخ (وجدى) قائلًا :

— حسنًا .. سأبحث لك عن عمل فى مصنعى .

ثم قال مستدركًا :

— ولكن يجب ألا يعرف أحد أنك أبى ، بأى حال من الأحوال .

قال الأب ، وقد استردّ هدوءه :

— اطمئن .. لن يعرف أحد ، دعنى أكون قريبًا منكما ، وأعدك أن أحدًا لن يعرف أننى ما زالت على قيد الحياة ، حتى أفارقها بالفعل .

قال (وجدى) بشىء من الضيق :

— وأين ستقيم ؟

أجابه الأب :

— فى فيلتك بالطبع .

انتفض (وجدى) قائلًا بغضب :

— فى فيلتى ؟!.. ماذا تقول ؟ هل تريد منى أيضًا أن أجعلك تقيم فى منزلى ؟

أجابه الأب :

— لو فكرت قليلًا ، لوجدت أن هذا سيكون الأفضل بالنسبة لك ، فوجودى قريبًا منك إلى هذا الحد ، سيضمن لك أننى لن أثرثر بأية كلمة ، يمكن أن تشير إلى الصلة ، التى تربط بينى وبينك .. سأكون أمام عينيك ، وستضمن سكوتى .

قال وجدى :

— إنه تهديد بشكل آخر ، ولكنه ليس سافرًا كسابقه ، وإنما يتخذ شكل النصيحة ، ولكنه غير مقبول .. إننى موافق بالنسبة للوظيفة ، أما بالنسبة للإقامة ، فيجب أن تبحث لك عن مأوى آخر .

استعد الأب للانصراف ، قائلًا :

— حسنًا .. سأتصرّف .

ولكن قبل أن يدرك باب الغرفة ، استوقفه (وجدى) قائلًا :

ــ انتظر .

ثم نظر إليه متردّدًا ، وهو يقول :

ــ أين ستذهب ؟

أجابه الأب :

ــ قلت لك سأتصرَّف .

تحرَّك (وجدى) فى الغرفة بعصبية ، قائلا :

ــ إننى لا أعرف كيف تنتظر منى أن أسمح لك بالإقامة فى منزلى ، دون الكشف عن حقيقة شخصيتك ؟.. بأية صفة تريد منى أن أقدّمك بها إلى زوجتى وابنتى .

أجابه الأب سريعًا :

ــ ما رأيك لو عينتنى حارسًا ، أو بوابًا ، أو خفيرًا ، أو بأية صفة تختارها لڤيلتك ؟.. إننى فى هذه الحالة لن أطلب منك راتبًا ، وسأعمل نظير إقامتى وطعامى فقط ..

إننى أعلم أنك تبحث عن شخص ، يصلح لأن يكون حارسًا للڤيلا ، بعد أن غادرها الحارس السابق ، وعاد إلى بلدته ، ويمكننى القيام بهذا العمل ، خاصة وأنه سيجعلنى أكثر قربًا منك ، ومن ابنك ، وسيتيح لى رؤية أختك أيضًا .

قال (وجدى) وفى صوته نبرة احتجاج :

ــ ما هذ ؟ .. هل كنت تجمع المعلومات عنى ، قبل حضورك إلى هنا ؟

أجابه الأب بنبرة هادئة :

ــ يمكنك أن تقول إننى كنت أتتبع أخبارك ، بوسيلة أو بأخرى .

قال وجدى :

ــ ومع هذا فإننى أرفض .. كيف تنتظر منى أن أعين أبى حارسًا أو خفيرًا لمنزلى ؟

ابتسم الأب لأول مرة ، قائلًا :

ــ أبى ؟. إنها المرة الأولى التى تنطق فيها بهذه الكلمة ، منذ أن التقيت بك ، دون أن تحمل فى طياتها ذلك الازدراء ، الذى رأيته فى عينيك .

أشاح (وجدى) بوجهه قائلًا :

ــ لا تحاول أن تؤثّر علىّ عاطفيًا ، إن الموقف الذى أتخذه حيالك ، لن يغيّر من الحقيقة شيئًا حتى لو لم أكن راضيًا عن هذه الحقيقة ..

واستدار إليه ، وبدت ملامح التردد واضحة على وجهه ، وبعد برهة من الصمت قال مستسلمًا :

— حسنًا .. سأعيِّنك حارسًا للڤيلا ، إذا كان هذا ثمنًا لسكوتك ، وضمانًا لإخفاء حقيقة الصلة ، التى تربط بيننا ، على أن تلتزم بحفظ هذا السر إلى الأبد .

قال الأب ، وفى صوته نبرة حزينة :

— لقد أخبرتك بأننى سألتزم بهذا — بالنسبة للآخرين — عدا أختك بالطبع ، فيجب ...

لكن (وجدى) قاطعه قائلًا :

— حتى أختى .. يجب ألا تعرف ذلك .

احتج الأب ، قائلًا :

— ولكن ..

لكن (وجدى) عاد لمقاطعته :

— هذا هو شرطى .

الأب :

— ألا تظن أنها ستتعرّفنى عندما ترانى ؟

وجدى :

— لا أعتقد ذلك ، فقد كانت صغيرة ، عندما غادرت المنزل ، ولا أظن أنها ستتعرَّفك ، بعد كل هذه السنين الطويلة .

قال الأب بانكسار :

— حسنًا .. أوافق .. أوافق يا ولدى .

* * *

٣ — شىء فى نفسى ..

توجّه (وجدى) فى صحبة أبيه ، إلى غرفة صغيرة ، فى أحد أركان الحديقة ، دسّ المفتاح فى قفلها ليفتحها ، ثم أضاء النور قائلًا :

— هذه الغرفة كانت مخصَّصة لحارس الڤيلا السابق ، وستكون محلًا لإقامتك .

كانت الغرفة متواضعة للغاية ، يتوسّطها بساط قديم ، وسرير معدنى صغير فى أحد أركانها ، وبالقرب من النافذة الخشبية الصغيرة كانت توجد منضدة معدنية ، أمامها مقعد واحد لتناول الطعام ، ولم يكن هناك من وسائل التسلية سوى تليفزيون عتيق الطراز ، وبعض الأدوات الإضافية الصغيرة الأخرى .. وتطلع الأب إلى محتويات الغرفة الصغيرة ، دون أن تبدو على وجهه علامات التبرم ، بل بدا سعيدًا بها وهو يقول :

— حسنًا .. هذه الغرفة تناسبنى تمامًا .

لكن ملامح الضيق كانت واضحة على وجه (وجدى) .
فقد انتابه شعور مبهم بعدم الرضا عن هذا الوضع ، وبأنه لا يليق به أن يسكن تلك الڤيلا الفاخرة ، تاركًا أباه ينام فى هذه الغرفة المتواضعة ، فى أحد أركان الحديقة ، مهما كان موقفه من أبيه .. بل لم يكن راضيًا عن تعيينه فى هذه الوظيفة كحارس لڤيلته ، وأحسّ بأن ذلك الأمر ينطوى على شىء من النذالة والخسة ، ولكنه حاول تجاهل هذا الشعور ، الذى أخذ يراوده قائلًا :

ـ بالنسبة للطعام ، يمكنك أن تحضر إلى المطبخ فى أى وقت ، لتأخذ ما تحتاج إليه .

قال الأب ، وقد بدا وكأنه قد تذكَّر شيئًا غاب عنه :

ـ هل تعرف أننى لم أتناول أى طعام منذ الصباح ؟

قال (وجدى) :

ـ سأحضر لك بعض الطعام من الثلاجة .

قال الأب متسائلًا :

ـ ألن تدعونى لرؤية ڤيلتك ؟

قال (وجدى) مترددًا :

ـ نعم .. ولكن ...

الأب :

ـ لقد قلت لى إن زوجتك وابنك فى الخارج .. إذن يمكنك أن تجعلنى أرى منزلك من الداخل ، دون حرج .

(وجدى) :

ـ ولكن .. قد تصل (نجلاء) والولد فى أية لحظة ، فماذا أقول لهم ؟

أجابه الأب :

ـ لاشىء .. ستقول إنك عيَّنت حارسًا جديدًا ، للڤيلا وأنك تطلعه على كل ركن فيها ، حتى يقوم بعمله كما يجب .. أعتقد أنها حجة مقبولة .

قال (وجدى) متبرِّمًا :

ـ حسنًا .. تعال معى .

تطلَّع الأب إلى الڤيلا الأنيقة من الداخل ، والتى بدت أشبه بأحد القصور الصغيرة ، وفى عينيه نظرة إعجاب وانبهار ، قائلًا :

ـ لديك مسكن يدعو للإعجاب حقًا ، فكل ما هنا ينطق بالثراء والأناقة .

قال الابن ، متجاهلًا تعليقه :

— سأرى ماذا يوجد فى الثلاجة من طعام ؟

توجّه إلى المطبخ فى حين قال الأب بصوت عال :

— كل هذا الثراء وليس لديك خادمة وطباخ فى المنزل ؟

وجدى :

— الخادمة تغادر المنزل فى السابعة مساءً ، وزوجتى تتولّى إعداد الطعام بنفسها ، لأنها طباخة ماهرة .

الأب :

— ما رأيك لو ساعدتها فى إعداد بعض الحلوى ، من آن لآخر ؟

عاد الابن من المطبخ ، حاملًا صينية بها نصف دجاجة محمرة ، وبعض شرائح من البطاطس ، وأنواعًا مختلفة من الجبن ، وكوبًا من العصير ، ليضعهما على المائدة أمام والده ، وهو يجيب على سؤاله بحسم :

— لا .. لن يكون لك علاقة بالمطبخ ، أو بأى شىء آخر داخل هذا المنزل — يكفيك حراسة الفلا فقط .

ابتسم الأب قائلًا :

— ألم تعد تشتاق إلى الحلوى الشرقية ، التى كنت أعدّها لك وأنت صغير ؟

ابتسم (وجدى) بالرغم منه ، وقد أعادت إليه كلمات أبيه ذكرى قديمة ومحبّبة إلى نفسه .. لقد تذكر الآن فقط صوانى الكنافة والبقلاوة وبلح الشام ، وكل تلك الحلوى الشرقية الرائعة ، التى تذوّقها وهو صبى صغير ، والتى كان أبوه يتولّى إعدادها بنفسه فى المنزل .. لقد تذوّق أنواعًا مختلفة من الحلوى الشرقية والغربية ، وارتاد أفخر المحال ، التى تقدّم تلك الأصناف من الحلوى ، فى الداخل وفى الخارج ، ولكنه لن ينسى أبدًا ذلك المذاق الرائع ، لتلك الحلوى الشرقية ، التى كان يعدّها أبوه ، والتى ورثها عن جده ، الذى كان يحترف إعداد ذلك النوع من الحلوى كمهنة ..

كان لتلك الحلوى مذاق آخر فى فمه ، ربما لأن أباه كان يعدها بنوع من المتعة والفن الراق ، فكانت تأتى على أشهى صورة .. وكان هذا هو الشىء الوحيد ، الذى يجلب السرور إلى نفسه من ذكرى أبيه ، فى ذلك الماضى الكريه ، ومع ذلك فقد تجاهل الرد على سؤال أبيه ، قائلًا :

— هيا لنأكل .. ألم تقل إنك جوعان ؟

انتبه الأب إلى الطعام الموجود على المائدة ، فانجذبت كل حواسه نحوه ، واندفع يجلس أمام المائدة ، وينكبّ على الأكل

فى شراهة ونهم ، فى حين وقف (وجدى) يراقبه ، وقد انتابه فجأة فيض من حنان البنوَّة تجاهه ..

لقد وقف فى المطبخ يعد له ذلك الطعام ، وهو يسعى — دون أن يدرى إلى انتقاء أفضل ما هو موجود لديه ، كما لو كان يعد هذه الأطعمة لنفسه ، بل إنه — دون وعى أو إرادة — تمنّى فى قرارة نفسه ، لو وجد فى المنزل ما هو أفضل من ذلك ليقدمه لأبيه ، بالرغم من غضبه ونقمته الظاهرة عليه ، والأغرب من هذا ، ذلك الإحساس المبهم ، الذى تملكه ، والذى بدا له مضحكًا وشاذًا فى آن واحد ..

لقد تمنى لو جلس على المائدة إلى جوار أبيه ، وارتدّ طفلًا صغيرًا ، لا يتجاوز عمره ثلاثة الأعوام ، ليتولّى والده إطعامه بنفسه ، بل ويؤنبه لو سمح لبعض بقايا الطعام بالتساقط على صدره .. ربما لأن حرمانه الطويل من حنان الأبوة ، وتلك العلاقة الخاصة التى تربط بين الابن وأبيه ، والتى تختلف فى شكلها ومضمونها عن علاقته بأمه ، هو الذى دفعه إلى ذلك التفكير الغريب ..

وسرعان ما هزّ رأسه بقوة ، وكأنه ينفض ذلك الإحساس العابر عن نفسه ، فأبوه مسئول عن أخطاء كثيرة فى حقه ،

وحق أمه وأخته ، أخطاء ما زالت جروحها باقية فى نفسه ، ويجب ألّا ينساق وراء تلك العاطفة ، التى تحاول أن تشده إليه ..

يجب ألا يغفر له ما ارتكبه فى حقه ، وحق أمه المسكينة أبدًا ..

ويبدو أن الأب قد لاحظ أن (وجدى) يحدّق فيه ، فى أثناء تناوله لطعامه ، ولاحظ تلك المشاعر المتناقضة ، التى ترسم خطوطها على وجهه ، فقال وهو يمضغ الطعام :

— أمازلت قلقًا من وجودى ؟

قال (وجدى) بصراحة قاسية :

— فى الحقيقة لا أستطيع أن أنكر ، أننى كنت أفضّل ألّا تكون موجودًا ؛ فقد أصبحت بالنسبة لى لغمًا قابلًا للانفجار فى أية لحظة ، ليطيح بأشياء كثيرة فى حياتى .

قابل أبوه صراحته ببرود ، قائلًا :

— هل ستظل واقفًا هكذا ؟ اجلس .

وجلس (وجدى) على المقعد المواجه له حول المائدة ، فى حين أردف أبوه :

— على كل حال ، لا داعى لأن تسرف فى القلق ، فقد

يكون وجودى معك مؤقتًا ، وربما تجدنى ذات يوم ، بعد أسبوع أو شهر أو عام ، أودعك راحلا عن هذه المدينة .

تهلل وجه (وجدى) ، وهو يقول :

ــ هل هذا صحيح ؟

حدجه الأب بنظرة فاحصة ، وهو يتوقف عن مضغ الطعام ، ثم قال متجاهلا سؤاله :

ــ قل لى .. هل زوجتك جميلة ؟

تراجع (وجدى) فى مقعده ، قائلًا بلا مبالاة ، إذ بدا مشغولًا بما قاله أبوه بشأن رحيله :

ــ نعم .. ولكن قل لى : هل ما قلته ، عن استعدادك لترك المدينة جدى ؟

ردّ الأب أيضًا ، بلا مبالاة قائلًا :

ــ نعم .. فقد أسافر إلى إحدى الدول العربية .

ثم أردف ، وهو يتابع حديثه عن زوجة ابنه :

ــ لقد سمعت أنها من أسرة كبيرة .

وجدى .

ــ نعم أبوها (نور الدين عزمى) ، من عائلة كبيرة فى (السويس) ، وكان محافظًا سابقًا لـ (بورسعيد) .. ولكنك لم تحدثنى عن أمر سفرك هذا .

عاد الأب يتجاهل سؤال ابنه ، قائلًا وهو يحدجه بنظرة ثابتة :

ــ هل تحبها ؟

ابتسم (وجدى) ، قائلًا بتهكم :

ــ هل تريد أن تلعب معى دور الأب المهتم بحياة ابنه الاجتماعية ؟

الأب :

ــ ولكنى مهتمّ بالفعل .

(وجدى) .

ــ حسنًا .. فلتعلم إذن أننى أحب زوجتى وابنى ، ونحن سعداء فى حياتنا .. إذ كانت هذه هى رغبتك الحقيقة .

الأب :

ــ وما اسم ابنك ؟ وعمره ؟

(وجدى) :

ــ اسمه (وائل) .. وعمره تسع سنوات .

ابتسم الأب مرددًا :

ــ (وائل وجدى منصور الدهشورى) اسم جميل .

توقف الأب عن ازدراد الطعام ، قائلًا باهتمام :

— وأختك .. ما أخبارها ؟

(وجدى) :

— (فاطمة) بخير .. تزوَّجت مهندسًا يعمل فى مؤسَّستى ، ولديها منه طفلان ، ومنزلها غير بعيد عن هنا .

غادر الأب مقعده ، قائلًا :

— عظيم .. لقد اطمأننت عليكما .

قال (وجدى) ، وهو يضغط على كلماته ، وكأنه يتعمَّد أن يصل معناها إلى أبيه :

— لقد صارت الحياة بنا على أفضل ما يكون ، والفضل فى هذا يرجع إلى خالى (أمين) ، الذى أنقذنا من الضياع ، وتولَّى أمرنا منذ اللحظة الأولى ، التى ابتعدت فيها عنا ، حتى ورَّثنا ثروته فى النهاية ؛ ليضمن لنا حياة كريمة ورغدة ، حتى بعد موته .

تجاهل الأب المعنى المقصود من كلمات ابنه ، قائلًا :

— أرشدنى إلى الحمام .. أريد أن أغسل يدى .

فى تلك اللحظة تعالى صوت سيارة تتوقف بالخارج ، فبدا الارتباك واضحًا على وجه (وجدى) ، الذى تسمَّر فى مكانه قائلًا :

— لقد عادت (نجلاء) والولد .

وارتبك ..

ارتبك فى شدة ..

* * *

٤ — صراع المشاعر ..

قال الأب لابنه ، فى هدوء وثبات :

— لماذا تبدو مرتبكًا على هذا النحو ؟.. ألم نتفق على كل شىء ..؟ من المفروض أننى أعمل حارسًا للفيلا ، بدلًا من الحارس السابق .

قال (وجدى) بوجه ممتقع .

— وبم سأخبرها عن وجودك داخل الفيلا ، وتناولك الطعام على المائدة الرئيسية ؟

الأب :

— هل زوجتك أرستقراطية ومتعالية إلى هذه الدرجة ؟

فى تلك اللحظة فُتح باب الفيلا ، واندفع (وائل) إلى الداخل — كعادته — ليسبق أمه ، فى حين وقفت (نجلاء) تنزع المفتاح من فتحة الباب ، وفتح (وائل) ذراعيه ، متجهًا لمعانقة أبيه ، وهو يهتف قائلًا :

— ماما .. بابا .. هنا ، وهو لم ينم بعد .

فتح (وجدى) ذراعيه بدوره لاستقباله ، قائلًا :

ـــ أهلًا (وائل) حبيبى .

ولكن وائل تسمَّر أمام الرجل ، الواقف بجوار أبيه ، وهو يحدِّق فيه باستغراب ، وقابل (منصور) (الأب) دهشته بابتسامة ، وهو يطيل النظر إليه بدوره ، وقد اكتسى وجهه بملامح تشفّ عن حنان دافق ، وهمس لـ (وجدى) :

ـــ ألا ترى يا (وجدى) . أنه يشبهنى أكثر منك ؟

همس (وجدى) وهو يراقب اقتراب زوجته ، دون أن يخفى حدة انفعاله :

ـــ اصمت .

عاد (وائل) يهتف بأمه قائلًا :

ـــ ماما .. يوجد رجل عجوز فى منزلنا .

وحدَّقت (نجلاء) فى والد زوجها ، وفى عينيها نظرة تساؤل ، أكثر منها دهشة ، فقال لها (وجدى) ، محاولًا إخفاء توتره :

ـــ إن هذا الرجل ...

قاطعه (منصور) ، وهو يمدّ يده لمصافحة (نجلاء) ، بعد أن لاحظ ارتباك ابنه :

ـــ (عبد التواب) ياهانم .. لقد عيننى (وجدى) بك اليوم لحراسة الفيلا .

وصافحته (نجلاء) ، وهى تجذب يدها من يده فى سرعة . قائلة لـ (وجدى) :

ـــ أهذا هو الحارس الجديد ؟

أجابها (وجدى) :

ـــ نعم .. إنه من بلدة مجاورة ، وسبق له القيام بهذا العمل فى إحدى الفيلات بـ (القاهرة) ، وقد رشحه لى أحد أصدقائى .

ولكن (نجلاء) بدت غير مهتمّة بما قاله زوجها ، إذ أخذت تتأمل الرجل بثيابه الرثّة ، ثم تقدّمت من زوجها لتمسك بمرفقه ، وهى تجذبه إلى أحد أركان الردهة ، قائلة فى همس :

ـــ ما هذا ؟ ما الذى دعاك إلى الإقدام على هذا التصرف الغريب ؟

قال دون أن يتخلص من توتره :

كان الرجل جائعًا ، فلم أجد بدًا من دعوته إلى تناول الطعام هنا ، ولكى يأخذ فكرة عن الفيلا من الداخل أيضًا ، قبل أن يتولى حراستها .

قالت (نجلاء) فى حدة :

ـــ إننى لا أتحدث عن هذا .. ولكن من الذى دعاك إلى تعيينه فى هذا العمل أصلًا ؟..

ألا ترى أن الرجل متقدم فى السن ، ولا يصلح للقيام بهذا العمل . الذى أسندته إليه ؟ ثم ألم أخبرك بأن (فوزية) صديقتى طلبت منى تعيين أحد أقاربها لحراسة الڤيلا ؟ هل تقصد أن تحرجنى ؟

وجدى :

ـ أبدا يا حبيبتى .. لقد غاب هذا عن ذهنى .. كما أن الصديق الذى أحضره لى أيضا قد أحرجنى ، ولم أجد ما أقوله له . أما عن كونه متقدما فى العمر ، فأنت تعلمين أنه سيكون بوابا أكثر منه حارسًا ، إذ ليس لدينا ما نخشاه فى هذه البلدة التى يحبنا فيها الجميع .

التفتت (نجلاء) إلى الرجل ، قائلة :

ـ انظر إلى ثيابه الرثة .

وجدى :

ـ وهذا ما دفعنى إلى الموافقة على تعيينه .. إن الرجل يبدو مسكينا ، وفى حاجة ملحة إلى العمل ؛ لذا فقد أشفقت عليه .

قالت (نجلاء) ، وهى تقترب من مكان الرجل ، هامسة :

ـ أليس له أولاد أو عائلة ؟

ازدرد (وجدى) لعابه ، وهو يقول بصعوبة :

ـ فى الواقع .. لم أسأله عن هذا .

كان (منصور) مستمرًا فى تبادل النظرات الحنونة مع الصبى ، عندما التقطت أذناه ما قالته زوجة ابنه همسًا ، فاقترب منها قائلا :

ـ لقد توفيت زوجتى منذ بضع سنوات ، وكانت هى كل عائلتى ، إذ لم أنجب منها أولادًا .

اكتسى وجه (نجلاء) بنظرة إشفاق ، وهى تردد :

ـ مسكين .

(أطرق (منصور) بوجهه إلى الأرض ، وهو يقول :

ـ لا يحرمنا الله من عطفك يا هانم .

نظرت إلى (وجدى) ، قائلة :

ـ هل قدمت له شيئًا من الطعام ؟

قال (منصور) سريعًا :

ـ لقد تفضل (وجدى) بك بإطعامى ، قبل حضور حضرتك بلحظات .. بعد إذنك يا هانم .. سأعيد الأوانى الفارغة إلى المطبخ .

وراقبته الزوجة وهو يحمل الأوانى ، متجهًا بها إلى المطبخ ، قائلة :

— يبدو أنه يستحق المساعدة حقًا .. ما هو الراتب الذى اتفقت معه عليه ؟

وجدى :

— لم أتفق معه بعد .

نجلاء :

— لا تضن عليه براتب جيد ، وسأعطيه بعضًا من ثيابك القديمة ، بدلًا من ثيابه المهلهلة هذه .

وتقدم (وائل) من والده ، قائلًا :

— بابا .. هل سيقيم هذا الرجل معنا فى المنزل ؟

وجدى :

— نعم يا حبيبى .. إنه الحارس الجديد ، وسيقيم فى الغرفة التى كان يقيم فيها عم (محمود) بالحديقة .

وائل :

— ولكننى أخاف منه .. فهو يبدو مخيفًا .

ربَّت (وجدى) على ظهر ابنه ، وهو يجثو على إحدى ركبتيه إلى جواره ، قائلًا :

— إنه رجل طيب ومسكين ، وليس فيه ما يخيف أحدًا ، بل هو يستحق منا العطف والرعاية .

وكانت (نجلاء) قد غادرت الردهة لإحضار بعض ثياب زوجها القديمة ؛ لتقديمها للرجل ، فى حين شرد (وجدى) ، وهو يفكِّر فى ذلك الوضع الغريب ، الذى وجد نفسه فيه هكذا فجأة ، خلال عدة ساعات ، ومنذ أن التقى بوالده ، الذى كاد ينساه ، ويمحى وجوده من ذاكرته ..

إن هذا الوضع ، الذى يفرض عليه إخفاء حقيقة أبيه ، ليظهره أمام الآخرين فى مظهر الأجير ، الذى يعمل لديه ، يثقل على ضميره ، ويشعره بشىء من عدم الاحترام نحو نفسه ، وهو لا يعرف ما الذى دعاه إلى الانسياق وراء أفكار أبيه ، لتنفيذ هذه التمثيلية القبيحة ؛ وكيف سيتعامل مع والده كأجير لديه ؟.. بل كيف سيتقبّل معاملات الآخرين معه بهذه الصفة ، خاصة وهو سيراه أمامه فى المنزل دائمًا ؟..

إنه فى النهاية ، شاء أو لم يشأ أبوه ، ولابد لتلك العواطف الخفية ، التى طالما حاول أن يئدها ، أن تتحرك ، مهما كانت مرارة المشاعر ، التى يحملها فى نفسه ، تجاه هذا الأب القاسى ، الذى تخلى عنه فى طفولته وصباه ورجولته ، وهو لا يريد لهذه العواطف أن تتحرك أبدًا ، لا يريد حتى أن يشعر بشىء من تأنيب الضمير تجاه أبيه ، ففى أعماق نفسه سد خرسانى ، يرتفع يومًا بعد يوم ، ليحجب عاطفة البنوَّة فى نفسه ويخفيها ..

وأحس بأنه كان مخطئًا فى موافقته على ما طلبه منه أبوه ، وكان عليه أن يكون أكثر تشددًا فى هذا الشأن ، بل كان عليه أن يبذل جهدًا أكثر ، فى إبعاده عن حياته مرة أخرى ، ولكن ماذا يفعل ؟.. إنه يهدده بكشف حقيقة الصلة ، التى تربط بينهما ، وهو قادر على تنفيذ تهديده ، وإذا ما نفذه فسيكون هذا كارثة حقيقية بالنسبة له ..

ولكن هل كان يعنى ذلك بالفعل ؟..

هل كان سيسعى إلى تحطيم مستقبله وحياته العائلية ، بكشف سر الصلة التى تربط بينهما حقًا ، فى حالة رفضه لما طالبه به ؟..

قال لنفسه ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مريرة :

ـ ولِمَ لا ؟ لقد تخلَّى عن أبنائه وزوجته فى الماضى ، ولم يعبأ بالعار الذى يمكن أن يجلبه عليهم ، عندما اختار لنفسه طريق السجن والجريمة ، فما الذى سيردعه الآن ؟

إن مشاعر الأبوة لديه ميِّتة ، وبالطبع هو لم يعُد من أجل اشتياقه إليه وإلى أخته ، أو رغبته فى البقاء بجوارهما فى سنواته الأخيرة كما يقول ويتظاهر ، لقد عاد يبحث عنهما ، بعد أن أصبح فقيرًا معدمًا ، لا يجد له المأوى ، وينهش الجوع أمعاءه ..

عاد من أجل الاستفادة من أمواله ، برغم تظاهره بعكس

ذلك ، وتعففه الزائف ، وبرغم أنه عرض عليه معاونته ، واستعداده لتولى أمور معيشته والإنفاق عليه ، إلا أنه يبدو أنه لا يقنع بذلك ، ويسعى لاستثمار أبوته له لأقصى مدى ..

وخرج (وجدى) من شروده على لمسة من زوجته لكتفه ، وهى تهمس قائلة :

ـ (وجدى) .. لقد أحضرت له بعضًا من ثيابك القديمة .

قال وهو ينهض واقفًا ، حيث كان ما زال جاثيًا بجوار ابنه ، الذى انشغل عنه بمطالعة بعض المجلات :

ـ أعتقد أنك تولينه اهتمامًا أكثر من اللازم .

ونظرت إليه باستغراب ، قائلة :

ـ لقد كنت تقول عنه إنه رجل مسكين منذ لحظات ، فضلاً عن أنه من طرف صديقك ، كما أنه يبدو بائسًا بالفعل .. ألا يدعونا هذا لإبداء بعض الاهتمام ؟

قال بضيق :

ـ حسنًا .. افعلى ما يحلو لك ، أما أنا فسوف أذهب إلى الفراش ؛ لأننى متعب وأريد أن أنام .

ظلت تلك النظرة المتفحصة فى عينى (نجلاء) ، وهى تقول :

ـ (وجدى) .. ماذا بك ؟ هل هناك ما يضايقك ؟
وقال وكأنه يدفع عن نفسه تهمة :
ـ أنا .. كلا .. كل ما هنالك أننى أشعر ببعض التعب ، كما قلت لك .
وفى تلك اللحظة حضر (منصور) من المطبخ ، ووقف بجوار الباب ، وهو يجفف يديه ، مُوَجِّهًا حديثه إلى (نجلاء) قائلًا :
ـ كل شىء تمام يا هانم .. لقد غسلت الأوانى ، ووضعتها فى أماكنها .. هل تحتاجين إلىَّ فى شىء آخر ؟
تقدَّمت (نجلاء) نحوه قائلة :
ـ لم يكن هناك ما يدعوك إلى ذلك يا عم (عبد التواب) ، فهناك خادمة تتولى شئون المطبخ والمنزل .
ابتسم قائلًا :
ـ إننى لم أفعل شيئًا يا هانم ، وأنا مستعد دائمًا للقيام بأى عمل تكلفوننى إياه ، إلى جانب رعايتى للفيلا ، مهما كان ، فأنا لن أنسى فضل (وجدى) بك علىَّ ، بتعيينه لى هنا ، فى ظل الظروف السيئة ، التى أمر بها هذه الأيام .
وقدَّمت له (نجلاء) الثياب القديمة ، التى أحضرتها قائلة :
ـ أشكرك يا عم (عبد التواب) .. خذ . هذه الملابس من أجلك .

أخذ منها (منصور) الثياب ، وعلى وجهه نظرة امتنان ، قائلًا :
ـ أشكرك يا هانم .
تقدَّم منه (وائل) متردِّدًا ، وهو يقول :
ـ هل يمكنك رعاية عصافير (الكناريا) فى أثناء غيابى فى المدرسة ؟
ابتسم (منصور) قائلًا فى حنان :
ـ بالطبع يا (وائل) بك .. سأحفظهم فى عينىَّ ، ما داموا يخصونك .. إن لى بعض الخبرة ، فى معاملة ذلك النوع من الطيور .
ثم التفت نحو (وجدى) وزوجته ، قائلًا :
ـ والآن اسمحا لى بالانصراف .
نجلاء .
ـ تفضل يا عم (عبده) .
وانصرف (عبد التواب) ، تتبعه نظرات (وجدى) الذى تتنازعه مشاعر شتى .. ومتناقضة ..

* * *

٥ ـــ قلبى مع ولدى ..

وضع وجدى يده على كتف أبيه ، قائلًا فى انفعال :

ـــ ما الذى تفعله هنا ؟

قال (منصور) دون اهتمام ، وهو يركز نظراته على شرفة واسعة ، تطل على حديقة صغيرة فى أحد المنازل ، قائلًا :

ـــ أحاول رؤية (فاطمة) وأولادها .

وجدى :

ـــ ألم ترها أول أمس ، عندما جاءت لزيارتنا ؟

التفت إليه الأب ، قائلًا فى حزن :

ـــ إنك لم تتح لى الفرصة ، لكى أملأ عينىّ منها .

وجدى :

ـــ ولكنك بهذه الطريقة ستكشف عن نفسك .

عاد الأب ينظر إلى الشرفة ، قائلًا :

ـــ اطمئن .. إننى أحاول فقط رؤيتها والاطمئنان عليها ، ثم سأنصرف عائدًا إلى الفيلا .

قال (وجدى) بضيق :

ـــ أبهذه الطريقة ؟.. تترك الفيلا مبكرًا ، دون أن تقول لأحد ، ثم تأتى لتقف على ناصية الشارع ، متطلعًا بفضول إلى شرفة المنزل ، كما يفعل المتلصصون ، لترى (فاطمة) ؟ وهل هناك طريقة للفت الأنظار وإثارة الأقاويل أكثر من هذا ؟

نظر إليه الأب ، قائلًا فى حدة هذه المرة :

ـــ من حقى أن أرى ابنتى .

قال (وجدى) بحدة مماثلة :

ـــ ما الذى جعلك تهتم بهذا الحق هكذا فجأة ؟.. لقد كانت (فاطمة) موجودة دائمًا ، فأين كنت أنت طوال السنين الماضية ؟

أمسك الأب بسترة ابنه قائلًا فى غلظة :

ـــ اسمع أيها الولد .. إنك ابنى فى النهاية ، ولن أسمح لك بترديد هذه الكلمات على مسامعى ، من آن لآخر .. ليس من حقك أن تؤنبنى ، فأنا وحدى الذى أمتلك هذا الحق .. هل تسمعنى ؟

أمسك (وجدى) يدى أبيه ؛ ليبعدها عن سترته ، قائلًا وهو ينظر حوله :

ـــ إياك أن تكرر ذلك مرة أخرى .. ما الذى يحدث لو رآك أحد تمسك بسترتى على هذا النحو ؟

خفض الأب بصره ، قائلًا وقد خفت صوته :

ــ معك حق .. فالمفروض أننى البواب ، الذى يرعىٰ منزلك ، فكيف يمسك البواب سترة البك على هذا النحو ؟

وجدى :

ــ أنت الذى طلبت القيام بهذا العمل ، وكان بيننا اتفاق واضح فى هذا الشأن .

الأب :

ــ وأنا لا أحتجّ على العمل الذى أقوم به ، بل إننى سعيد به ، ومستعد للقيام بما هو أدنى من ذلك من أعمال ، وأظن أنه قد مرّ على أسبوعان فى هذا العمل ، التزمت خلالهما بما هو مطلوب منى على الوجه الأكمل ، ولم أسمح لنفسى بالوقوع فى أى خطأ ، ولو كان صغيرًا ، يمكن أن يكشف عن الصلة التى بيننا ، ولكن كل ما أريده هو أن أشعر بقربكما منى أنت وأختك ، على نحو أكثر من هذا ، أريد منك أن تعوّضنى حرمان السنين ، التى باعدت بينى وبينكما ، بغضّ النظر عمن كان المسئول عن ذلك البعاد ، أريد أن أقترب منك ، دون أن أرى هذه النظرة القاسية فى عينيك .. إننى أشعر بأنك تتعمّد أن تباعد بينى وبين رؤية (فاطمة) ، وهذا ظلم .

صمت (وجدى) قليلًا ، ثم قال :

ــ إننى لا أعرف متى هبطت عليك تلك العاطفة الجياشة نحونا ؟!

ثم نظر إليه ، وفى عينيه نظرة إنكار قائلًا :

ــ هل تحاول أن تفهمنى أن تلك العاطفة حقيقية ؟

الأب :

ــ لماذا لا تصدّق أننى أحبكما ؟

وجدى :

ــ لأننى كنت أبحث عن هذا الحب طويلًا فلا أجده ، ولأن الحنان لا ينفذ إلى القلوب الجامدة هكذا مرة واحدة ، ودون مقدمات ..

على كل حال إننا لن نقف لنتحاور فى هذا المكان ، على ناصية الطريق ، هيا عد للڤيلا ، وقل لـ (نجلاء) أى سبب ، تبرّر به مغادرتك للمنزل هكذا مبكرًا .

قال الأب وهو يتطلع إلى الشرفة بلهفة :

ــ ولكن ...

وجدى :

ــ سأجد وسيلة لأجعلك تلتقى بـ (فاطمة) .. ولكن عد الآن .

امتثل الأب ، قائلًا :

ــ أمرك يا بنى .

قال (وجدى) قبل أن يعود لسيارته :

ــ على فكرة .. لا داعى لإبداء كل هذا الاهتمام المبالغ فيه بـ (وائل) ، فهذا أيضًا يمكن أن يلفت الأنظار .

فى هذه اللحظة نادته (نجلاء) :

ــ عم (عبده) .. أين كنت ؟

وأجابها (منصور) قائلًا :

ــ ذهبت لتوديع أحد معارفى قبل سفره .

نجلاء :

ــ بدون أن تخبرنا .

منصور :

ــ آسف يا هانم .. خطأ لن يتكرر .

تطلعت إليه قائلة :

ــ قل لى .. لماذا يبدو وجهك حزينًا هكذا ؟

اصطنع (منصور) ابتسامة باهتة على وجهه ، وهو يقول :

ــ أبدًا يا هانم .. إننى سعيد للغاية ، منذ التحقت بالعمل هنا .

وظلّت تحدّق فى وجهه ، غير مقتنعة بما يقول ، ثم قالت :

ــ حسنًا .. هل تريد المساعدة حقًّا فى بعض أعمال المطبخ ؟

منصور :

ــ سيكون هذا من دواعى سرورى .

نجلاء :

ــ إذن تعال معى ، فسوف نقيم حفلًا الليلة ، بمناسبة نجاح (وجدى) فى إبرام إحدى الصفقات ، وسنكون بحاجة لكل جهد هنا .

سألها (منصور) ، وهو يصحبها إلى الداخل :

ــ هل ستحضر الهانم أخت (وجدى) بك إلى الحفل ؟

نظرت إليه بدهشة ، قائلة :

ــ ربما .. ولكن ما شأنك أنت بهذا ؟

أجابها بارتباك :

ــ لا .. لاشىء . مجرد سؤال .

وتركته (نجلاء) يتقدّمها إلى المطبخ ، وفى عينيها نظرة تساؤل حائرة ..

لقد لاحظت فى المرة السابقة ، عندما زارتهم (فاطمة) وزوجها وأولادها ، أن الرجل يبدى اهتمامًا غير طبيعى بهم ، وأنه

يتطلع إلى أخت زوجها بالذات بنظرات غريبة ، بل لمحته وهو يرقبها خلسة بجوار شرفة الڤيلا ، وقد أثار ذلك دهشتها ، لكنها عزته إلى نوع من الفضول ، فلم يكن من المقبول أن تكون لتلك النظرات أى معنى آخر غير الفضول .. وإلا فما معناها ؟

وفى المساء ، وصل عدد من الأشخاص فى صحبة زوجاتهم إلى ڤيلا (وجدى) ، حيث شارك (منصور) فى القيام بأعمال الضيافة وخدمتهم ، بتقديم المشروبات والأطعمة ، ولم يكن (وجدى) قد وصل بعد ، وسأل أحدهم قائلا :

— هل هذا معقول .. نحضر إلى الحفل ، دون وجود صاحبه ؟

رد عليه آخر :

— أنت تعرف (وجدى) جيدًا ... لابد أن أمامه بعض الأعمال .. و (وجدى) ، عندما ينخرط فى العمل ، ينسى أى شىء آخر عداه .

واقتربت منهما (نجلاء) قائلة بلطف :

— ليس إلى هذه الدرجة يا (عصام) بك .. لقد اتصل بى (وجدى) منذ لحظات ، وهو فى طريقه إلى هنا ، ثم إنكم لستم غرباء فالمنزل منزلكم .

ضحك الرجل قائلًا :

— طبعًا .. طبعًا يا (نجلاء) هانم .

لكن (نجلاء) تركتهما ، ودخلت إلى الشرفة ، وهى تنظر إلى الطريق ، وقد بدت عليها ملامح التوتر والعصبية ، وتبعها (منصور) إلى الشرفة ، وقد لاحظ توترها ، ثم مالبث أن قال بصوت خافت :

— هل هناك ما يكدِّرك يا هانم ؟

التفتت إليه ، لتنفجر فى وجهه بعصبية :

— ما هذا ؟.. ما شأنك أنت إذا كان هناك ما يكدرنى أم لا ؟

قال منصور متحرجًا وقد فاجأته بهذا الأسلوب ، الذى لم تحدثه به منذ أن حضر إلى الڤيلا :

— لقد لاحظت ...

لكنها قاطعته بنفس الحدة :

— ليس من حقك أن تلاحظ أى شىء ، أو تبدى تعلقًا بشأن أى شىء .. فأنا أرى منذ حضورك إلى هنا أنك تتصرف بطريقة غريبة ، وأحيانًا تتجاوز الكثير من الحدود .

أطرق (منصور) برأسه إلى الأرض ، قائلًا :

ــ آسف يا هانم .

واستدار ليغادر الشرفة ، لكنها استوقفته قائلة :

ــ انتظر .

واقتربت منه ، وفى ملامحها شىء من الندم ، لتعتذر له قائلة بصوت خافت :

ــ لا تغضب منى ياعم (عبده) .. فأنا التى يجب أن أعتذر لك .

قال سريعًا :

ــ العفو ياهانم .

نجلاء :

ــ إننى أشعر بأنك رجل طيب ، وأنك تحب الخير للآخرين .. لكننى أشعر ببعض الضيق الآن .

وشجعته لهجتها الحانية على أن يقول لها :

ــ لعدم حضور (وجدى) حتى الآن .

نظرت إليه بدهشة ، ولكنه سرعان ما استدرك .

ــ آسف .. (وجدى) بك .. إنها زلة لسان .

استطردت نجلاء قائلة :

ــ إننى أشعر أحيانًا أنه يتعمد أن يحرجنى ، فهو لا يحضر

فى موعده دائمًا ، بل أحيانًا كثيرة يدعنى أواجه الموقف بمفردى .

قال لها (منصور) وهو يبدى اهتمامًا حقيقيًا :

ــ هل اتصلت به فى مكتبه ؟

نجلاء :

ــ اتصلت .. وأخبرتنى سكرتيرته أنه غادر مكتبه منذ ساعة .

منصور :

ــ إذن فلابد أنه فى طريقه إلى هنا .

نجلاء :

ــ الطريق ، من الشركة حتى هنا ، لا يستغرق عشرين دقيقة .

بدا القلق ينتاب (منصور) من أجل ابنه ، فإذا كان قد غادر مكتبه منذ ساعة ، وإذا كانت المسافة بين الشركة والمنزل لا تزيد على عشرين دقيقة ، فأين ذهب إذن ؟ خاصة وهو يعرف أن هناك عددًا من المدعوين والمدعوات فى منزله الليلة لحفل أقيم خصيصًا من أجله .

وقال لها فجأة :

— سأذهب لأبحث عنه .

ولكنها أوقفته قائلة :

— ما هذا ؟ هل ستذهب لتبحث عنه فى الطرقات ؟ إنه على كل حال ليس بالطفل الصغير ، ولابد أن عملًا ما قد عطله .

وفجأة نظر (منصور) إلى البوابة الخارجية ، وعلت وجهه ابتسامة ارتياح وهو يقول :

— لقد حضر .. ها هى ذى سيارته .

ونظرت (نجلاء) للسيارة ، وهى تعبر البوابة إلى داخل الفيلا ، وقد هدأ توترها قليلًا ، وقال (منصور) متهللًا :

— سأذهب لاستقباله بنفسى .

تطلعت إليه (نجلاء) ، وقد حلت الدهشة محل التوتر على ملامحها قائلة :

— لم أكن أعرف أنك تحبه هكذا .

وتضاعفت حيرتها ..

تضاعفت كثيرًا .

* * *

٦ — متاعب رجل ..

اندفع (منصور) نحو سيارة (وجدى) ، وهو يهم بفتح بابها قائلًا :

— لماذا تأخرت هكذا ؟ الضيوف يسألون عنك وزوجتك قلقة جدًا .

ولكن (وجدى) حدجه بنظرة صارمة ، محذرًا إياه من التبسط فى الحديث ، وأدرك (منصور) أن هناك آخرين معه فى السيارة ، فتدارك الموقف ، وتوقف عن الحديث ، وهو يفتح الباب الخلفى ، وأحس بقلبه يخفق فى شدة ، عندما رأى ابنته (فاطمة) ، وهى تهبط من السيارة ، ومعها أبناؤها الثلاثة ، ولم يستطع أن يتحكم فى نظرة الاشتياق ، التى قفزت إلى عينيه ، وهو يتأمل ملامح وجهها ، وسرعان ما قال ، وهو يغالب أحاسيسه :

— أهلًا وسهلًا يا (فاطمة) هانم .

وردت عليه وفى عينيها نظرة حزينة :

ـ أهلا يا عم (عبده) .. من فضلك أحضر الحقائب من السيارة .

قال (وجدى) :

ـ اسبقينى أنت والأولاد إلى الداخل ، وسألحق بكم .

وقف (منصور) يتابعها ، فى أثناء دخولها إلى الفيلا ، وهو يشيعها بنظرات حنونة ، فى حين اتجه (وجدى) إلى حقيبة السيارة الخلفية ، ليفتحها ويخرج منها الحقائب الخاصة بـ(فاطمة) وأولادها ، فاقترب منه (منصور) ، بعد انصراف ابنته ، قائلا وعلى وجهه ابتسامة امتنان :

ـ لم أكن أعرف أن تأخرك هذا سببه ذهابك إلى (فاطمة) ، ولو أنه كان يتعين عليك الاتصال بنا وإخبارنا بذلك ، حتى لا تثير قلق زوجتك ، وتتسبَّب فى إحراجها أمام الضيوف .

ولم يرد عليه (وجدى) ، بل تناول الحقائب ليضعها على الأرض ، ووجهه ينمّ عن الضيق والغضب ، فى حين أردف (منصور) قائلا :

ـ على كل حال أشكرك لأنك استجبت سريعًا لمطلبى ، وأحضرت (فاطمة) معك هى والأولاد .. إنه ليسعدنى أن

أن أشعر بأنك ترعى خاطرى ، وتدرك حقيقة إحساسى كأب .

التفت (وجدى) إليه ، قائلا بانفعال :

ـ حسنًا .. يتعين عليك أن تعرف أننى لم آت بـ(فاطمة) وأولادها مراعاة لخاطرك ، أو إدراكا لأحاسيسك الأبوية كما تقول ، وإنما أحضرتها إلى هنا لأنها على خلاف مع زوجها ، وهما على وشك الانفصال .. ألم تلحظ كل هذه الحقائب ، التى أحضرتها معها ؟

نظر (منصور) إلى الحقائب وقد اكتست ملامح وجهه بالقلق قائلا :

ـ نعم .. كيف لم ألحظ ذلك ؟ ولكن ما الذى حدث ؟ أعنى ما سبب الخلاف بين (فاطمة) وزوجها ؟

قال (وجدى) متبرِّمًا :

ـ وهل تنتظر منى أن أترك زوجتى والضيوف ، لأقف هنا وأحكى لك تفاصيل الخلاف بينهما ؟

لقد كنت تريد أن تكون قريبًا من ابنتك لتنعم بصحبتها ، وها هى ذى قد جاءت لتبقى بجوارك لفترة طويلة ، فلتهنأ إذن بصحبتها ، وكفانى ما أنا فيه من مشاكل ..

والآن أعتقد أنه من المتعين عليك أن تحمل هذه الحقائب إلى الداخل ، كما قالت لك (فاطمة) .. أعنى أن هذا هو الوضع المفروض أمام الآخرين .

وانحنى (منصور) على الحقائب ليحملها ، وقد ظللت وجهه ملامح الوجوم ؛ وهو يقول :

— نعم .. نعم .. أفهم ذلك .. اسبقنى أنت وسألحق بك .

تحرَّك (وجدى) عدة خطوات إلى الأمام ، لكنه ما لبث أن توقف ، وقد بدا له أنه قد تذكر شيئًا ، فعاد إلى أبيه ، قائلًا :

— بالطبع لست بحاجة لكى أذكرك بعدم الإفراط ، فى إظهار المشاعر تجاه (فاطمة) وأبنائها ، كما هو الحال بالنسبة لـ(وائل) ، حتى لا يلحظ أحد شيئًا .

قال (منصور) دون أن ينظر إليه :

— أعرف ما يتعين علىَّ أن أفعله ، ولست بحاجة لكى تذكرنى بذلك .

وحدَّق فيه (وجدى) برهة ، ثم أطلق زفرة قصيرة ، واستدار عائدًا ..

إن تصرفاته تجاه أبيه تحمله عبئًا نفسيًا كبيرًا ، فكلما التقيا وتحدثا معًا انتابته مشاعر متناقضة ومتصارعة ، شعور بالبغض ، وذكريات الماضى التى تتراقص أمام عينيه ، بكل ما فيها من ألم وشقاء ، عاشها على يد هذا الرجل الواقف أمامه ، والتى لم

تنقض بابتعاده عنه وهجره لهم ، بل ظلَّت باقية فى نظرة الحزن والألم ، التى كان يراها دائمًا فى عينى أمه ، التى أحبَّها من كل قلبه ، وكان يعرف ويدرك جيدًا أنها كانت تحب أباه ، وبالرغم من كل شىء ، وبالرغم من كل قسوته معها ، وأنها حزينة بسببه ولأجله ، حتى قضى عليها هذا الحزن ، بالرغم من انقضاء سنوات طويلة على الفراق ، وكان آخر ما رآه فى عينيها قبل موتها ، تلك النظرة ، التى تحمل كل شقاء العالم ، بالرغم من كل ما حاول أن يوفره لها من أسباب السعادة ..

وشعور آخر بتأنيب الضمير ، فهذا الرجل أبوه ، وهو يبدو مخلصًا فى مشاعره الحالية تجاهه وتجاه أخته ، إنه يبدو بالفعل نادمًا على السنين التى فرقت بينهم ، ويحاول أن يعوِّضها برغبة جامحة .. ولكنه عاجز عن أن يتجاوب معه فى عاطفته المشبوبة هذه .. بل إنه يجد نفسه أحيانًا كثيرة ، ودون وعى منه ، مندفعًا إلى إيذاء مشاعره ، والتعامل معه بقسوة ، ثم لا يلبث أن يشعر بالندم من أجل ذلك ..

ربما لأن مشاعره قد تجمَّدت تجاه أبيه ، بفعل السنوات الطويلة التى باعدت بينهما ، وتلك الذكريات المريرة ، التى ترتد لعقله كلما رأى هذا الأب ..

ولكن ليت الأمر يقتصر على مجرد المشاعر الجامدة فقط ، وليته يتوقَّف عن استخدام ذلك الأسلوب ، فى التعامل معه ، وتلك القسوة التى تكوى ضميره ، كلما وجد نفسه مندفعًا للتصرف بها ، ودون وعى منه ..

وحتى لو نجح فى السيطرة على مشاعره واندفاعاته ، فالظروف تحتم عليه أن يتعامل معه ، على هذا النحو الذى يضايقه ، تعامل الرئيس مع المرءوس .. إنه أمام الجميع حارس وبواب لمنزله ، وأحيانًا يقوم بدور الخادم ، بما يستتبعه ذلك من قيامه ببعض الأعمال ، التى يضطرها إليه وضعه هذا ، كما أن الآخرين يتعاملون معه بهذه الصفة ، وهذا يثير فى نفسه الكثير من الضيق ، ولكنه لا يجد حيلة إزاء ذلك ..

إنه مستعد لأن يدفع له ما يريد ، فى مقابل أن يغادر هذا المنزل ، فهو رجل يكره المشاكل ، ومتاعب الإحساس بالذنب ، وكفاه مشاكل عمله ومتاعب طموحاته ..

بل إنه مستعد لأن يتغاضى عن كل ما بينه وبين أبيه من ذكريات مريرة ، فى مقابل أن يعفيه من كل تلك المتاعب ، التى يسببها له وجوده معه ، ويجنبه ذلك الإحساس بالضيق والخطر ، الذى يحاصره دائمًا منذ أن التقيا ..

ليته يبتعد ولا يبقى بينهما ما يذكره به من خير أو شر ، وها هى ذى أخته فى خلاف جديد مع زوجها ، والأمور بينهما تنذر بالانفصال ، ما لم يحاول أن يتدخل فى الأمر ، ويحسم هذا الخلاف .. إنها مشكلة أخرى تضاف إلى مشكلته مع أبيه ، وهو يكاد يشعر بالاختناق من تلك المشاكل ، التى أخذت تحاصره ..

أما (منصور) ، فلم يكن هناك ما يشغله فى هذه اللحظة سوى قلقه على ابنته ..

إن معنى أن تأتى إلى منزل أخيها مع أبنائها ، أن هناك مشكلة كبيرة بالفعل ، بينها وبين زوجها .. مشكلة تهدِّد حياتها الأسرية .. وواجبه كأب يحتم عليه أن يتدخل ؛ لحل هذه المشكلة ، ورأب الصدع ، الذى يهدد بيت ابنته وحياتها بالانهيار ..

ولكن كيف السبيل إلى هذا وهو لا يستطيع القيام بدور الأب ؟..

كيف السبيل إلى مساعدة ابنته ، إذا كانت حتى هذه اللحظة تجهل أنه أبوها ، ولا يستطيع أن يخبرها بالحقيقة ؟

وكيف السبيل وبأى حق يتدخل ، وهو فى نظر الجميع (عبد التواب) البواب ؟.. رجل على الهامش فى حياة ابنه وابنته ..

كيف يمكنه مساعدتها وحل مشاكلها ، كأى أب آخر ، دون أن يكشف الحقيقة ، والسر المجهول فى حياته وحياة ابنه وابنته ؟..

لا مناص إذن من الاعتماد على ابنه فى حل هذه المشكلة ، والوقوف إلى جوار أخته ، ما دام هو عاجزًا عن التدخل ..

يجب ألا يدع الأمور تتطوّر إلى ما هو أخطر ، ببقائها فى منزل (وجدى) ، بعيدًا عن منزلها ، ويتعين عليه أن يسانده فى ذلك ، ويساعده على إصلاح الأمر .

* * *

بادر (وجدى) زوجته ، قائلًا :

ـــ آسف يا (نجلاء) للتأخير ، ولكن ...

ولكنها قاطعته قائلة :

ـــ لقد فهمت كل شىء ، عندما رأيت (فاطمة) قادمة معك ، ومعها حقائبها ، ولكن ماذا حدث ؟ إن (فاطمة) تبدو منهارة تمامًا .

نظر إليها واجمًا ، وهو يقول :

ـــ ستقيم (فاطمة) وأولادها معنا لبعض الوقت .

قالت :

ـــ على الرحب والسعة .. ولكنك لم تخبرنى عما حدث

نظر إليها وقد ازداد وجومًا ، وقال :

ـــ (منير) على علاقة بامرأة أخرى .

تطلعت إليه بدهشة ، مرددة :

ـــ (منير) ؟!.. مستحيل !!

وجدى :

ـــ لماذا .. مستحيل ؟ وهل هذه هى المشكلة الأولى بينهما ؟

نجلاء :

ـــ نعم .. أعرف أن هناك العديد من المشاكل والخلافات ، التى لا تنتهى بينهما ، ولكن لم يتطرق إلى ذهنى أبدًا أن يكون (منير) على علاقة بأخرى .

وجدى :

ـــ من هم على شاكلة (منير) لا تستبعدى عنهم أى شىء ، (منير) إنسان وصولى ، وهذا ما وجدته فيه منذ البداية ، ومنذ أن وطئت أقدامه مصنعى ، والإنسان الوصولى ، الذى يسعى وراء الغاية بأية وسيلة كانت ، يمكنه أن يفعل أى شىء ، ولقد أعلنت رأيى هذا ، وقلته للجميع منذ الوهلة الأولى ، ولكن

(فاطمة) كانت تحبه ، واستكانت أمها لرغبتها فى الزواج منه ، فلم يكن أمامى إلا الرضوخ ، ولم أرد أن أبدو أمامهما متعنتًا ، وهذه هى النتيجة ..

أسرة كاملة مهدَّدة بالانهيار ؛ بسبب نزوة شخص وصولى ، وأنانى ، مخادع .

نجلاء :

ـ ليس هذا هو المهم الآن . المهم كيف ستعالج الموقف ؟

وزفر (وجدى) بضيق ، قائلًا :

ـ لا أعرف .. ولكن الأمور ستتضح ، حينما أقابله غدًا

نجلاء :

ـ حاول أن تسيطر على أعصابك ، وتذكَّر أن الحكمة مطلوبة ، فى معالجة مثل هذه الأمور ، فهناك زوجة وأولاد وبيت .

قال بمرارة ، وهو يضرب بقبضته على الجدار :

ـ وكأننى فرغت من كل ما ورائى من مشاكل ، حتى تبرز لى مشكلة (فاطمة) وزوجها أيضًا .

واقتربت منه (نجلاء) ، لتحيط ذراعه بيديها فى حنان ، وهى تحاول امتصاص انفعاله ، قائلة :

ـ تذكَّر أنك أخوها الوحيد ، وليس لها سواك لتلجأ إليه ، فى معالجة مشاكلها ..

والآن تخلَّص من هذه التقطيبة ، المرتسمة على وجهك ، وحاول أن تبدل بها ابتسامة لطيفة ، قبل أن ندخل إلى الردهة ، فلا يعقل أن تقابل ضيوفك وأنت واجم هكذا .

استمع إلى نصيحتها ، وابتسم .. ولكنها كانت ابتسامة عجيبة ..

ابتسامة ألم ..

* * *



٧ــ طريق النجاح ..

استدعى (وجدى) المهندس (منير) إلى مكتبه ، ومضت لحظات قبل أن يصل (منير) إلى المكتب ، وهو يخطو بخطوات تدل على لا مبالاة وتحدٍّ حقيقى ، قائلا :

ــ هل طلبتنى ؟

ودعاه (وجدى) إلى الجلوس ، قائلا :

ــ اجلس .

وجلس (منير) على المقعد المواجه لمكتب (وجدى) ، واضعًا ساقًا فوق أخرى ، وهو مستمر فى مظهره اللامبالى ، فسأله (وجدى) ، وهو يحاول أن يسيطر على أعصابه :

ــ ماذا حدث بينك وبين (فاطمة) هذه المرة ؟

قال (منير) بتعالٍ :

ــ ألم تخبرك أختك ؟

وجدى :

ــ بلى أخبرتنى .. ولكنى كنت أفضل ، أن أسمع منك أنت ، ولكنك لم تكن موجودًا بالمنزل أمس .

منير :

ــ ولن أكون موجودًا فيما بعد .

وجدى :

ــ هل صحيح أنك على علاقة بامرأة أخرى ؟

منير :

ــ نعم .. هذا صحيح تمامًا .. وأنا فى طريقى للاقتران بهذه المرأة .

واحتدَّ (وجدى) قائلًا :

ــ هل بلغت بك الجرأة والتبجح ، أن تقول لى هذا بتلك الطريقة المباشرة .

قال (منير) بسخرية :

ــ حسنًا .. قل لى الطريقة التى تفضّلها ، لكى أطلعك على الأمر .

وجدى :

ــ هل نسيت أنك زوج أختى ؟

استدار (منير) يواجه (وجدى) ، وفى عينيه غضب جامح ، قائلًا :

ــ كلا .. إننى لم أنس هذه الحقيقة أبدًا يا (وجدى) بك .

فالسيدة أختك تذكرنى بها دائمًا .. تذكرنى أنك الحاكم الآمر فى هذه المدينة ، وتذكرنى بأنه من حسن حظى ، ومن طالع سعدى ، أننى قد تزوَّجتها ، لأصبح صهرًا للمليونير المرحوم (وجدى منصور) ، صاحب الأفضال العديدة علىَّ . بدءًا من تعيينى فى مؤسسته ، وانتهاءً بذلك الراتب الشهرى الإضافى ، الذى يدفعه لى فوق راتبى من المؤسسة ، للإنفاق منه على أسرتى ، والظهور بالمظهر اللائق ، والذى يتناسب مع مصاهرة رجل مرموق مثلك .. وليست هى وحدها ، بل أنت أيضًا .. أنت أيضًا لم تتوان عن تذكيرى بذلك ، وتعداد الامتيازات التى حصلت عليها ، بفضل زواجى من أختك .

قال (وجدى) ، وهو يتراجع بمقعده إلى الوراء :

ــ أليست هذه هى الحقيقة ؟.. كان يتعين عليك ، وهى واضحة أمامك وضوح الشمس ، أن تكون أكثر حفظًا للجميل ، وأكثر مراعاة لمشاعر الرجل ، الذى حقق لك ما لم تكن تحلم به ..

فقد جئت إلى هذه المدينة مهندسًا صغيرًا ، لا يجد عملًا ، والعمل الوحيد الذى استطعت الحصول عليه هو وظيفة مندوب مبيعات ، لبعض المحال التجارية ، إلى أن بدأت تنسج

شباكك حول (فاطمة) ، مستغلًا عواطفها الساذجة ، وقلة خبرتها فى الحياة ، واستطعت التأثير عليها ، لتدفعنا إلى الموافقة على زواجك منها ، ولم يكن من المقبول بالطبع أن أدع زوج أختى يعمل مندوبًا للمبيعات ، فكان أن عينتك مهندسًا فى مؤسستى ، ومنحتك سيارة ومنزلًا وامتيازات لا يحلم بها أى مهندس كبير ، سبقك فى التخرج بعشرات السنين .

منير :

ــ لا تقل لى : إنك فعلت هذا من أجلى ، بل ولا حتى من أجل أختك ، بل فعلته من أجل نفسك ..

من أجل وضعك الاجتماعى والمادى ، وطموحاتك التى لا تنتهى ، فعندما لم تستطع أن تمنع زواجى من أختك بالرغم من معارضتك الشديدة ، أصبح من المتعين عليك أن تعمل على وضع ذلك الزوج ــ المفروض عليك ــ فى المكانة التى تتلاءم مع اسم ومكانة (وجدى بك منصور) .

وجدى :

ــ ليكن .. أننى فعلت هذا من أجل نفسى ، ولكنك لا تستطيع أن تنكر أنك قد استفدت من ذلك ، وأنك كنت تسعى من أجل ذلك .

منير :

ـ إننى لم أنكر قيمة مساعداتك ، لكنك لا تستطيع أن تقول إننى لم أعمل بجدّ وإخلاص فى مصنعك ، وإننى عملت بجهد وكفاءة ؛ لأثبت لك أنك لم تخطئ فى تعيينى بمؤسستك ، وأننى كنت أستحق الراتب الذى أحصل عليه ، إذا ما تغاضينا عن الامتيازات الأخرى ، التى عادت بعض فوائدها بلاشك على أختك وأولادها ..

الآخرون لم ينظروا إلى كفاءتى وإخلاصى ، قدر نظرتهم وتغامزهم على كونى صهر رئيس المؤسسة ، وأن كل ما أناله من امتيازات راجع إلى هذه الصلة ..

لقد أنكروا علىَّ كفاءتى بسببك ، حتى أنك لم تحاول أن تقدّرها حق قدرها ، وأنت تتشاغل دائمًا بتعديد أفضالك وحسناتك علىَّ .. وكل هذا كان من الممكن تحمّله والتغاضى عنه ، لكن ما لم أستطع تحمّله ، هو أن يمتد ذلك إلى بيتى ، وإلى زوجتى وأمام أولادى .

قال (وجدى) بجمود ، وكأنه معتاد سماع ذلك :

ـ هذا ليس جديدًا بالنسبة لك ، وأنت تعرف طباع (فاطمة) ، وتعرف جيدًا أنها لا تعنى دائمًا ما تقوله ، وإنما

هى انفعالات الغضب ، وأعتقد أنه كان لها كل الحق هذه المرة فى انفعالاتها ، وفيما قالته ، ما دام الأمر يتعلق بوجود امرأة أخرى فى حياتك .

(منير) :

ـ لا .. ليست المشكلة مشكلة انفعالات ومشاعر غاضبة .. المشكلة الحقيقية هى أنك أنت وأختك لم تستطيعا أن تقتنعا ، أو تفهما أبدًا أننى أحببت (فاطمة) .. أحببتها حقيقة وتزوّجتها من أجل ذلك ..

كنت بحاجة إلى عمل جيد ، وإلى راتب جيد ، وكان لى الكثير من الطموحات ، مثل أى شاب آخر ، هذه حقيقة ، فلكل منا طموحاته المشروعة .. لكن الحقيقة أيضًا هى أننى أحببت (فاطمة) .. أحببتها بإخلاص ، وتمنيت أن تكون زوجتى ، بغضّ النظر عن كونها أختك ، ودون أن يكون لذلك أية صلة بك ..

لم تكن (فاطمة) بالنسبة لى أبدًا سلّمًا للصعود إلى أعلى ..

لقد فرحت بما قدمته لى من مساعدة ، وعاهدت نفسى على أن أعمل لك بإخلاص وجد ، يتناسبان مع ما قدّمته لى من خدمات ، كما عاهدت نفسى على أن أكون زوجًا وفيًّا ومخلصًا

لزوجتى ، التى هى أختك وأن أكون جديرًا بالمنصب الذى حصلت عليه ، وبالزوجة التى أحببتها ، ولكنك لم تتوقف أبدًا عن النظر إلىَ كرجل وصولى ، وأن السبب الحقيقى وراء اقترانى بأختك ، هو الحصول على مزايا مصاهرة (وجدى بك منصور) ، أشهر أثرياء (بورسعيد) ، وظللت تغذى أختك بهذا الاعتقاد الخاطئ ، الذى استقر فى وجدانك ، حتى تمكنت فى النهاية من ترسيب هذه الفكرة بداخلها ، أو على الأقل استغلالها فى النكاية بى ، كلما احتدم بيننا خلاف .

وجدى :

ـ ليس هذا هو موضوعنا الآن .. المهم أن تسرع بقطع علاقتك بهذه المرأة التى عرفتها فورًا ، وبعد ذلك نبحث فى كيفية تصفية آثار فعلتك هذه ، وحل مشكلتك مع (فاطمة) .

وأجابه (منير) على الفور ، قائلًا :

ـ آسف .. إننى لن أقطع علاقتى مع هذه المرأة ، بأى حال من الأحوال فقد قررت الاقتران بها .

قال (وجدى) ، وهو يجتهد للسيطرة على أعصابه :

ـ و (فاطمة) والأولاد ؟

وردّ (منير) بهدوء :

ـ إننى تحت أمركما ، إذا أرادت أن تبقى على ذمتى ، فأنا مستعد ، ولن أقصرّ فى واجبى نحوها ونحو الأولاد ، وإذا أرادت الطلاق فلن أمانع ، وأنا مستعد أيضا للقيام بما علىَ من التزامات فى هذه الحالة .

قال (وجدى) ، وقد أطلت من وجهه ملامح الغضب :

ـ هل أنت مستعد لتحمل عواقب هذا الأمر ؟

منير :

ـ لقد فكرت كثيرًا ، ومستعد لتحمل جميع النتائج .

وجدى :

ـ سأفصلك من العمل .

منير :

ـ أعرف هذا .

وجدى :

ـ وسأسحب منك السيارة ، وأطردك من المنزل ، وأحرمك من أية امتيازات أخرى ، حصلت عليها بوساطتى .

منير :

ـ أعرف هذا أيضًا .. وقد كتبت بنفسى الاستقالة ، وتركتها لدى مدير شئون العاملين ؛ ليعرضها عليك بعد خروجى من هنا وتناول من جيبه سلسلة مفاتيح قدمها قائلًا :

— وهذه هى مفاتيح السيارة والمنزل .

ونهض واقفًا ، وهو يضيف :

— وعلى كل حال ، أشكرك على كل ما منحته لى من خدمات ، وما قدمته لى من مساعدات ، والآن اسمح لى أن أجمع أوراق من المكتب .

وهم بالانصراف ، لكن (وجدى) نهض من مقعده ، وهو يناديه بحدة .

— انتظر .

وقف (منير) بجوار الباب ، وعلى وجهه أمارات التصميم ، فى حين قال (وجدى) :

— إنك لا تدرى أية حماقة تلك التى ترتكبها .. لو كان الأمر بيدى ، لسعيت مخلصًا لإتمام هذا الانفصال ، فأنا مازلت أراك غير جدير بأختى ، ولكن الأولاد .. لابد من إيقاف هذه الحماقة من أجل أبنائكما .

منير :

— إننى أفعل هذا ، حتى لا أفقد احترامى أمام أبنائى .. لا أريد أن أرى فى نظراتهم ، فى المستقبل ما أراه فى عينيك وعينى (فاطمة) الآن .. لا أريد منهم أن ينظروا إلى أبيهم ، على أنه ذلك

الرجل الوصولى ، الذى تزوَّج من أمهم ؛ لكى يصبح عالة عليها وعلى خالهم .. وسيأتى وقت يدركون فيه هذا ..

وعلى كل حال ، فأنا لا أنوى التخلّى عنهم ، كما لا أنوى أن أحرمهم من أمهم .. اطمئن يا (وجدى) بك .. لقد فكرت فى كل شىء ، وما أفعله لصالح الجميع .

وأشار إليه (وجدى) بسبَّابته ، قائلًا :

— إننى أحذرك فأنا ...

لكن (منير) قاطعه بهدوء ، قائلًا :

— آسف .. لقد انقضى أوان التحذير .

ثم فتح الباب ليغادر الغرفة ..

وأسقط فى يد (وجدى) ، فتهالك فوق مقعده ، وهو ينظر إلى الباب المغلق فى وجوم ، ثم لم يلبث أن انتفض ، قائلًا فى انفعال :

— سأجعلك تندم .. سأعرف كيف أجعلك تندم على هذا .

ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ، ليتحوَّل انفعاله إلى قلق وخوف ، وهو يردِّد قائلًا لنفسه .

— هذا الطلاق سيكون له أثر سيئ ، على ترشيحى للانتخابات ، فلا شك أن البعض سيحاول استغلاله ضدى .

وعاد يقف من جديد ، وهو يدور حول مكتبه قائلا :

ــ لا .. لابد من منع هذا الطلاق بأى ثمن .. إننى لن أسمح لشخص وضيع كهذا أن يؤثّر على سمعتى ، ومستقبلى السياسى ..

لابد من حسم هذا الخلاف بأى ثمن .. لابد أن أجد وسيلة لذلك .

وتوقّف عن التفكير برهة ، ثم عاد يتوقّف أمام صورته ، الموضوعة على المكتب ، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الازدراء فجأة ..

لقد بدا كما لو كان قد انتبه إلى حقيقة نفسه بغتة ، فالمسألة إذن ليست مسألة خوفه على أخته ، وقلقه على أبنائها ..

إنه فى الحقيقة يفكّر فى نفسه ، وفى تأثير طلاقها من زوجها على سمعته ، وعلى الانتخابات التى ينوى خوضها ..

حتى فى مثل هذا الموقف العصيب ، وهو يرى حياة شقيقته الزوجية فى طريقها إلى الانهيار ، لم يحاول أن يعالج هذا الصدع من أجلها ، ومن أجل أبنائها برغم أنه كان صاحب تأثير ــ بلا شك ــ على هذا الانهيار .. بل كان يعالج الأمر من مصلحته الشخصية ، وكان يفعل ذلك حتى دون وعى منه ، فأنانيته

سيطرت عليه ، وخوفه على نفسه وأطماعه جعلا كل خطواته وأفعاله دائمًا تتحرك بآلية ، فى الوجهة التى تخدم مصالحه الشخصية ..

ولكن هذه هى شخصيته ، وهكذا أصبح .. إنه رجل أعمال ، ويسعى لهدف سياسى ، وفى السياسة ودنيا الأعمال لا مجال للعواطف ، فالأنانية جزء من النجاح ، وحب الذات هو الذى يساعد على التقدم إلى الأمام ، فلا مجال لمحاسبة النفس ، ولا لتأنيب الضمير .. وأيًا كان الأمر ، وسواء كان يعمل لأجل نفسه أو من أجل أخته ، فهذا الطلاق يجب ألا يتم لصالح الجميع .

ــ أبدًا ..

* * *



٨ ـــ لمسة أبوية ..

أخذ (منصور) يلهث من شدة التعب ، وهو يركض وراء (وائل) وأولاد ابنته ، يتحاور ويلعب معهم فى الحديقة ، وقد تعالت ضحكاته وضحكاتهم ، ثم لم يلبث أن توقَّف عن اللعب ، قائلًا :

ـــ كفى يا أولاد .. هذا يكفى اليوم ؛ فقد تعبت .

تشبث أحد أبناء ابنته بجلبابه ، قائلًا :

ـــ كلا يا عم (عبده) .. نريد أن نلعب معك الكرة .

ضحك قائلًا :

ـــ هل تظنوننى صغيرًا مثلكم ؟ لقد تجاوزت الستين ..

قال (وائل) :

ـــ ولكنك تجارينا فى اللعب ببراعة .

احتضنه (منصور) ، قائلًا :

ـــ هذا لأننى أحبكم ، وأسعد بمشاركتكم اللهو .

تناول أحد الأولاد يديه ، وهو يجذبه إلى الفناء الصغير ، القريب من الحديقة ، قائلًا فى إلحاح :

ـــ إذن هيا بنا .. هيا لنلعب الكرة .

وفى أثناء ذلك ، لمح (منصور) ابنته ، وهى تتخذ لنفسها ركنًا قصيًا من الحديقة ، لتجلس فوق أحد المقاعد ، وقد بدت أمارات الحزن واضحة فى عينيها ، فقال للأولاد ، وهو يراقب ابنته :

ـــ أعدكم باللعب معكم بعد قليل ، ولكن الآن عليكم باستذكار دروسكم أولًا ، وسوف أنادى عليكم بعد ساعتين ؛ لاستئناف اللعب معًا .

قال له أحد الأولاد محتجًا :

ـــ كلا نريد أن نلعب معك الآن .

واصطنع (منصور) الصرامة على وجهه ، قائلًا :

ـــ هأنتم أولاء قد بدأتم تغضبوننى ؛ لأنكم لا تسمعون الكلام ؛ فإذا لم تعودوا إلى الفيلا الآن لاستذكار دروسكم ، فسوف أخاصمكم ، وأتوقف عن مشاركتكم اللعب .

قال (وائل) سريعًا :

ـــ كلا يا عم (عبد التواب) .. إننا سنسمع كلامك .

قالت الطفلة الصغيرة :

ـــ ولكننى أريد أن ألعب الآن .

قال (وائل) ، وهو يتناول يد الصغيرة :

ــ هيا نعود إلى الفيلا ، وإلا خاصمنا عم (عبده) ، وامتنع عن اللعب معنا .

وتقدمت الصغيرة من (منصور) تمسك جلبابه ، قائلة :

ــ هل ستخاصمنا حقًا يا عم (عبده) ؟

جثا الرجل على إحدى ركبتيه ، ليحتضن الصغيرة ، وهو يضم معها بقية الأبناء إلى صدره فى حنان ، قائلًا :

ــ لا أظن أننى أستطيع أن أفعل ذلك أبدًا .

قال أحد الأبناء ، وهو يلقى برأسه على كتف (منصور) :

ــ إننا نحبك كثيرًا يا عم (عبده) :

ومسح الرجل على رأس الطفل فى حنان ، قائلًا :

ــ وأنا أيضًا أحبكم كثيرًا .. كثيرًا جدًا .. أكثر مما تتصورون .

سمع الجميع صوتًا يقول :

ــ ومع ذلك فيجب أن تنفذوا ما قاله لكم عم (عبد التواب) ، وتعودوا إلى المنزل للاستذكار ، وإلا غضبت أنا أيضًا منكم .

وفوجئ (منصور) باقتراب زوجة ابنه ، فهبّ واقفًا ، وهو يقول بحرج :

ــ أهلا بك يا هانم .

راقبت (نجلاء) انصراف الأبناء ، عائدين إلى الفيلا ، ثم التفتت إلى (منصور) تحدجه بنظرات نفاذة ، وكأنها تريد أن تنفذ إلى أعماقه ، قائلة :

ــ أرى أن الأولاد قد أصبحوا يقضون معك وقتًا طويلًا ، على حساب استذكارهم ، ولا أحب أن تشجّعهم على ذلك .

قال (منصور) :

ــ أنا آسف يا هانم .. ولكن صدقينى ، إننى أحثهم دائمًا على الاستذكار ، وكل ما هنالك أننى أشعر بأنهم كما لو كانوا أبنائى ، أو أحفادى ، فأقضى معهم بعض الوقت ، فى اللهو والترويح قليلًا .

ظلت (نجلاء) تحاصره بنظراتها ، وهى تقول :

ــ لقد لاحظت أنك أصبحت متعلّقًا بهم كثيرًا .

قال سريعًا :

ــ جدًا .. جدًا يا هانم .

نجلاء :

ــ وهم أيضًا أصبحوا شديدى التعلّق بك .

منصور :

ـ بارك الله فيهم .. إنهم كالملائكة .

نجلاء :

ـ ولكن ماذا ستفعل ، إذا ما غادرت (فاطمة) وأبناؤها القيلا ذات يوم ؟

منصور :

ـ سأفتقدهم كثيرًا ، ولكننى سأحاول زيارتهم من آن لآخر ، إذا ما أذنتم لى ، وأذنت لى (فاطمة) هانم .

نجلاء :

ـ ألا ترى ذلك غريبًا بعض الشىء ؟

منصور :

ـ لست أدرى يا هانم .. ماذا تعنين ؟

نجلاء :

ـ أعنى ذلك التعلّق الشديد ، الذى يجمع بينك وبين الأولاد .

منصور :

ـ ليس فى ذلك ما يثير الاستغراب .. رجل عجوز وحيد ، حُرِمَ من الأبناء .. أسعده وجود هؤلاء الملائكة الصغار حوله ، فبادلهم حبًا بحب ، وأصبح شديد التعلق بهم .

وهزت (نجلاء) رأسها ، وكأنما تحاول أن تقنع نفسها بما قائله ، مردِّدة :

ـ نعم .. الأمر على هذا النحو يبدو منطقيًا .

وصمتت برهة ، ثم عادت تقول :

ـ ولكن ...

سألها (منصور) :

ـ ولكن ماذا ؟

نجلاء :

ـ لا أعرف لماذا ينتابنى إحساس ، بأن الأمر ينطوى على شىء أكثر من هذا ؟

منصور :

ـ وما الذى يمكن أن تنطوى عليه علاقتى بهؤلاء الصغار ، أكثر مما قلته ؟

قالت (نجلاء) ، بعد برهة من التردّد :

ـ الأمر لا يتعلق بالصغار فقط ، ولكن بالكبار أيضًا .

منصور :

ـ لا أدرى ما الذى تقصدينه يا هانم ؟

قالت (نجلاء) ، وفى صوتها شىء من العصبية :

ـ أقصد تلك المحادثات الجانبية ، والهمس الذى يدور بينك وبين (وجدى) فى كثير من الأحيان ، والذى يتوقف على الفور حينما تريانى مقبلة .. هناك أمور خفية لا أفهمها ، تربط بينك وبين زوجى .

منصور :

ـ عفوًا ياهانم .. أؤكد لك أن الأمر لا يعدو كونه مصادفة .

قالت متهكمة :

ـ مصادفة ؟!. على كل حال سيأتى اليوم الذى أعرف فيه تلك الحقيقة ، التى تسعى إلى إخفائها ، والسبب الحقيقى الذى جاء بك (وجدى) من أجله إلى هنا .

ثم تركته وانصرفت . وقف ينظر إليها بقلق ، ثم قال لنفسه :

ـ يبدو أننى لم أكن حريصًا بالقدر الكافى ، فقد بدأت ألفت الأنظار ، وهذا سيضر حتمًا بوجودى .

ولكنه سرعان ما توقف عن هذا التفكير ، ووقف يرقب ابنته الحزينة ، وقد آلمه أن يرى فى عينيها تلك النظرة الشاردة ، ويبدو أن الابنة قد لاحظت وجوده ، فنظرت إليه بدهشة ممزوجة بالغضب ، قائلة :

ـ أكلما ذهبت إلى مكان أراك ورائى ، وأنت تحملق فىَّ هكذا ؟

اقترب منها قائلًا ، وفى صوته نبرة إشفاق :

ـ عفوًا يا بنيتى ، ولكننى أكره أن أراك حزينة هكذا .

وأثارت كلمته انفعالها ، فقالت له :

ـ ومن قال لك إننى حزينة ؟.. بل من أعطاك الحق فى آن تتدخل فى أحاسيسى على هذا النحو ؟

منصور :

ـ إننى أعدك مثل ابنتى تمامًا ، وكنت أفكر إذا ما كان بإمكانى مساعدتك بشىء ما .

قالت ، وقد زاد انفعالها :

ـ لكننى لا أرضى أن تكون بمثابة أب لى ، فأنت هنا حارس لهذه الفيلا فقط .. هل تفهم ؟

وأطرق برأسه فى أسى ، قائلًا :

نعم .. أفهم .. آسف يا (فاطمة) هانم .

وقالت ، وهى مستمرة فى انفعالها .

ـ حسنًا .. والآن وقد فهمت ، هل تتكرم بمغادرة هذا المكان ، وتتركنى بمفردى ؟

وردّ عليها ، قائلًا :

ـ حسنًا .. كما تحبين سأتركك بمفردك ، ولكن تأكدى أننى سأكون مستعدًا دائمًا لعمل أى شىء تريدينه منى ، والتدخل لمساعدتك على أى نحو ، أيًا كان الأمر .

وازدادت حدتها ، وهى تقول :

ــ ومن قال لك إننى أريد مساعدتك ؟ ومن تكون أنت حتى تمد لى يد المساعدة ؟

أجابها بانكسار :

ــ رجل بسيط وعجوز ، لكنه مستعد أن يجود بحياته فى سبيل إسعادك .

واستدار عائدًا ليتركها بمفردها ، وهى تنظر إليه باستغراب ودهشة ..

لماذا يبدى هذا الرجل كل ذلك الاهتمام المبالغ فيه نحوها ..
إنه يبدو صادقًا ومخلصًا فيما يقول بالفعل ، وهناك نبرة حنان وتعاطف أبوى فى صوته وهو يخاطبها ، وكذلك معاملته لأبنائها .. إنها تلمس فيها ذلك الحنان والحب الأبوى أيضا ..

هل يكون سببه حرمانه من الأبناء ؟ أم أن الرجل من النوع العاطفى ، الذى يتجاوب سريعًا مع آلام البشر وأحزانهم ، ويسعد بإسعاد الآخرين ؟..

لكن ملامحه لا تدل على ذلك .. وقد كانت الملامح هى التعبير الحقيقى عما تختزنه قلوب الآخرين ؟..

إنها تشعر ، كلما التقت به ، أنه يكنّ لها فيضًا من المشاعر ،

ومن الغريب أنها هى نفسها تشعر بهذا الإحساس الخفى نحوه ، وهو إحساس يدهشها ويثير توترها ، أتكون هى الأخرى قد وجدت فيه ذلك الأب ، الذى فقدته وهى طفلة صغيرة ، لا تتجاوز الثلاث سنوات ؟

وتمتمت قائلة لنفسها :

ــ نعم .. أبى .. ليته كان موجودًا الآن ..

من المؤكد أنه كان سيفهمها ويحس معها محنتها ويقف إلى جوارها ، فهى فى طريقها إلى أن تفقد (منير) .. تفقد زوجها ، وتفقد معه الحب .. والرعاية .. والمنزل الذى ضمهما وأولادهما ؛ بسبب تلك المرأة الأخرى ، التى تسللت إلى حياتهم لتدمّرها ..

ولكن ما ذنبها ؟.. الذنب ذنبه هو .. هو الذى خانها ، وباع حبها له ..

هو الذى قرر أن يضحّى بها وببيته وأولاده ؛ من أجل تلك المرأة .. بل والأكثر من ذلك فهو يتبجح بأنها كانت مسئولة عن ذلك ، وأنها أذلّت كبرياءه وكرامته ، فدفعته نحو تلك المرأة دفعًا .. ويا لها من مبررات ، تلك التى يتخذها أولئك الأزواج الخائنين ، ليبرّروا بها خيانتهم ، وجرمهم فى حق أسرتهم ..

وارتسمت على ملامحها بعض معالم الإحساس بالذنب ، وهى تردِّد قائلة :

ــ ولكن أليس فيما قاله لى ولـ(وجدى) جزءٌ من الحقيقة ؟

إنها بالفعل لم تتوقف عن معاملته بصلف وكبرياء ، على الرغم من الحب الكبير الذى جمع بينهما ..

لقد سيطرت عليها فكرة أنه يستغلها ويستغل نفوذ أخيها ، ولم تستطع أن تقاومها ، بالرغم من أنها كانت مقتنعة تمامًا بأنه يحبها ، وكان يحبها لذاتها ، يوم وافقت على الاقتران به ، وتحدَّث رأى أخيها فيه ، وفى أنه إنسان وصولى ، لا يهدف من وراء اقترانه بها سوى تحقيق مصلحته ..

لكن من الغريب أنها سرعان ما استسلمت لهذا الرأى تمامًا ، بعد زواجها منه ..

وربما كان السبب فى ذلك هو اهتمامه البالغ بعمله على حسابها ، وطموحه المغالى فيه ، وتلك المزايا التى أخذ يحصل عليها من أخيها ، كما كان لاستمرار (وجدى) فى العزف على تلك النغمة ، وتأكيده المستمر . بأن (منير) ليس سوى شخص وصولى ، اتخذ من زواجه منها وسيلة لتحقيق مصالحه

الشخصية ، كان لذلك أثره فى تثبيت هذه الفكرة فى رأسها ، واتخاذها وسيلة لمهاجمته ، كلما حدثت مشاجرة بينهما ، أو كلما لاحظت انصرافه عنها وإهماله لها ، عما كان عليه قبل الزواج ..

ربما كانت قد أخطأت .. وربما كان يتعين عليها أن تنظر إلى زوجها نظرة أخرى مختلفة ، عن تلك التى ترسَّبت فى نفسها ، ولكن أيًا كان الأمر ، فهى لن تغفر له أبدًا خيانته لها ، وتضحيته بها وبأبنائه ، من أجل تلك المرأة الأخرى ، التى سمح لها أن تدخل حياته ..

وسرعان ما انحدرت عبرة فوق وجنتيها ، وهى تعضّ على شفتيها ، قائلة لنفسها بأسى :

ــ المشكلة أننى مازلت أحبّه ، بالرغم من كل شىء ، فما زلت أحبه ، ولا أطيق فكرة ابتعاده عنى ..

نعم هذه هى الحقيقة ، التى لا أستطيع أن أعترف بها لأحد سوى نفسى .

وصدرت عنها تنهيدة قوية ، كما لو كانت تشق صدرها شقًّا ، وهى تقول :

ــ آه يا أمى ليتك كنت إلى جوارى الآن ، ولم يفرِّق بيننا الموت ، فأنا بحاجة إلى صدرك الحنون يضمنى إليه .. بحاجة إلى

أن أشكو لك همى ، وأفرغ فى أحضانك حزنى .. أنت وحدك كنت ستفهميننى وتعملين على مساعدتى .. فـ (وجدى) لا يفكر إلا فى نفسه ، ويعالج الأمر بأنانيته المعهودة ، كما أنه لن يستطيع أن يحس بى أو يفهمنى أبدًا ، وأنت يا أبى .. أين أنت ؟.. أين ذهبت وتركتنى ؟ لماذا تخليت عنا هكذا كل هذه السنين ، دون أن تبحث عنا وتحيطنا برعايتك ؟

أنا بحاجة ماسة إليك .. أحىٌ أنت أم ميت ؟

وإذا كنت حيًا ، فكيف هان عليك ابناك لتتخلى عنهما هكذا ؟ إننى لا أتذكرك .. بل لا أتذكَّر ملامحك ، ولم أعش فى كنفك من السنين ذلك القدر ، الذى يمكن أن يجعلنى أفتقدك ..

ولكننى لا أدرى لماذا أشعر بأننى أفتقدك حقيقة ، وأبحث عن وجودك كلما نظرت فى وجه ذلك الرجل العطوف (عبد التواب) ، وأحسّ بصدق لمسته الأبوية نحوى

وسمع (منصور) عددًا من الطرقات على باب غرفته ، فنهض متثاقلًا من فوق سريره ، ليفتح الباب ، حيث وقف ينظر فى دهشة إلى (فاطمة) وهى تقف أمامه ، وفوجئ بها تنتحب قائلة .

ـ عم (عبده) .. إننى بحاجة لأن أطرح عليك همومى .

وتفجَّر فى أعماقه ذلك الينبوع ..

تفجَّر غزيرًا .. وعميقًا .

* * *



٩ ـ الخطيئة والثمن ..

بقدر سعادته ؛ لأن ابنته لجأت إليه ، وأحسّت بدافع غريزى أنها فى حاجة إلى معاونته ، بقدر ما أحزنه ذلك الشعور بالعجز ، وعدم مقدرته على تقديم مساعدة حقيقية لها ، وأحسّ بقلبه يكاد ينفطر وقد رآها تتألم أمامه على هذا النحو ، دون أن يقوى على فعل شىء ، فقد باءت كل محاولات (وجدى) مع زوج شقيقته بالفشل ، والأبناء لا يتوقفون عن السؤال عن أبيهم ، والابنة تحاول إرضاء كبريائها بطلب الطلاق ، فى حين يقول حزنها ودمعها شيئًا آخر ، ويشيان بمدى حبها لزوجها ولوعتها لفراقه ؛ لذا كان عليه أن يتدخل بأى شكل ، وأيًا كانت المخاطرة ..

لقد قرر أن يقوم بدوره كأب ، ومثل أى أب حريص على مستقبل ابنته وأولادها ، لابد أن يكون له دور ، ودور حقيقى لمساندة ابنته ..

كان كل هذا يدور فى رأس (منصور) ، وهو فى طريقه إلى ذلك المنزل الصغير ، الذى يقع فى أحد ضواحى المدينة ،

والذى وقف يطرق بابه فى صمت ، حتى فُتح الباب ، وظهر (منير) ، الذى نظر إلى (منصور) بفضول ، قائلًا :

ــ ماذا تريد ؟

منصور :

ــ هل تسمح لى بالدخول ؟

تمعن فيه ، وبدا له وجهه مألوفًا ، وسمعه يقول :

ــ ألا تعرفنى يا (منير) بك ؟

منير :

ــ يخيل إلى أننى رأيتك من قبل .. آه تذكّرت .. أنت ذلك الرجل ، الذى يعمل فى ڤيلا (وجدى منصور) .. أليس كذلك ؟

منصور :

ــ بالضبط .

قال (منير) بجفاء :

ــ وماذا تريد ؟

منصور :

ــ أريد أن أتحدَّث معك قليلًا .

منير :

— عن أى شىء .

منصور :

— اسمح لى بالدخول أوّلًا .

وبعد لحظة من التردد تنحّى (منير) جانبًا ، ليفسح له المجال للدخول ، ودخل (منصور) ، وهو يغلق الباب خلفه ، حيث بادره (منير) قائلًا :

— لقد قدمت لـ (وجدى) كل متعلقاته لدىّ .. مفاتيح المنزل .. والسيارة ولم آخذ معى ، إلى هذا المنزل ، سوى حقيبة ملابسى ، فما الذى يريده منى بعد ذلك ؟

قال له (منصور) بهدوء :

— ومن قال إنه يريد منك شيئًا ؟

منير :

— إذا كانت (فاطمة) مصرّة على الطلاق ، فسوف أرسل لها ورقة طلاقها خلال هذا الأسبوع .. قل لهم هذا .

وردّ عليه (منصور) ، دون أن يتخلّى عن هدوئه :

— لم آت من أجل هذا أيضًا .

قال (منير) ، وقد بدا نافد الصبر :

— إذن فلماذا أرسلوك إلىّ ؟

منصور :

— إن أحدًا لم يرسلنى إليك .. لقد جئت لمقابلتك من تلقاء نفسى .

نظر إليه (منير) بدهشة ، قائلًا :

— لماذا ؟

منصور :

— لأمنعك من ذلك الخطأ الكبير ، الذى تنوى أن ترتكبه فى حق نفسك وفى حق زوجتك وأسرتك .

قال له (منير) بسخرية واستهزاء :

— تمنعنى .. أنت ؟

منصور :

— نعم .. أنا .

ونهض (منير) واقفًا ، وهو يقول بانفعال :

— اسمع أيها الرجل .. قل لمن أرسلوك .. إنه لا داعى لهذه المناورات ، ومحاولة استخدام أمثالك مرة أخرى للتحايل ، فقد انتهى الأمر بالنسبة لى ، وسوف أغادر (بورسعيد) ومعى زوجتى الجديدة ، خلال الأيام القليلة القادمة .

قال له (منصور) بانزعاج :

— هل تزوجت ؟
منير :
— وما شأنك أنت ؟
منصور :
— أجبنى بالله عليك .. هل تزوَّجت من تلك السيِّدة الأخرى ؟
منير :
— سيتم كل شىء خلال اليومين القادمين .
تمتم (منصور) قائلًا :
— الحمد لله .. لم يفت الأوان بعد .
قال له (منير) :
— على كل حال ، يمكنك أن تخبرهم بأن الأمر قد انتهى .
نظر إليه (منصور) قائلًا :
— اسمع يا بنى .. تأكد أننى لم آت إلى هنا ، بناءً على تكليف من أحد .. لقد جئت إليك من تلقاء نفسى ، لأناشدك الحفاظ على أسرتك وأبنائك وزوجتك ..
جئت لأخاطب فيك إحساسك بالأبوة والمسئولية ، لكى لا تضيع كل شىء فى مقابل نزوة طارئة ، أو كبرياء مبالغ فيه ،

فزوجتك وأبناؤك هم الأبقى لك من كل شىء ، وهم الذين يستحقون منك أن تتحمَّل وتُكابد من أجلهم .
قال (منير) بانفعال :
— وبأى حق تسمح لنفسك بالتدخل فى أمر كهذا ؟. إنك لست سوى أجير ، يعمل فى منزل (وجدى) .
منصور :
— يمكنك أن تقول إن الواجب الإنسانى ، وفضل هذه الأسرة علىَّ ، هو الذى دفعنى إلى ذلك .
قال (منير) متهكِّمًا :
— حسنًا .. إذا كان الأمر كذلك ، فقد أديت ما عليك من واجب ، نحو تلك الأسرة ، ونحو إنسانيتك ، لكن ذلك لن يغيِّر من الأمر شيئًا ..
لقد اتفقت مع تلك السيدة التى سأتزوجها ، ولن أخذلها .
منصور :
— وتخذل زوجتك وأبناءك ؟
منير :
— لقد خذلتنى زوجتى من قبل ، عندما لم تقدِّر قيمة حبى ، واستهانت بكرامتى كرجل .

منصور :

ـ لكنها تحبك ، وقد أحسّت بخطئها ، وهى تريد استعادتك .

منير :

ـ وما الذى يجعلك متأكدًا من ذلك ؟

منصور :

ـ ما أراه أمام عينىّ .. شرودها .. حزنها الدائم .. بكاؤها صورك وخطاباتك القديمة ، التى تطالعها خلسة .

منير :

ـ هل طلبت منك أن تقول لى هذا ؛ لكى تؤثر علىّ ؟

قال (منصور) بغضب :

ـ إنها لم تطلب منى أى شىء ، وهى لا تسعى إلى التأثير عليك على أى نحو ، بل إن كبرياءها يجعلها تصرّ على الطلاق ، وإن كانت مشاعرها ، كما أراها ، تقول غير ذلك .

وعاد (منير) إلى السخرية ، قائلًا :

ـ هل عيّنك (وجدى) لحراسة منزله خفيرًا ، أم شاعرًا ؟

منصور :

ـ اسخر منى كما شئت ، لكن فكّر فى الأمر .. راجع

نفسك ولا تشتت شمل أسرتك وأبنائك ، فقد يأتى اليوم الذى تندم فيه أكبر الندم ؛ لأنك تسببت فى فك أواصر تلك الأسرة الرائعة ، التى منّ الله بها عليك ، وتدرك أى جرم ذلك الذى ارتكبته فى حقهم وحق نفسك ، وقد يأتى هذا فى وقت لا ينفع فيه الندم .

قال (منير) بغضب :

ـ هل جئت إلى هنا ؛ لتلقى علىّ محاضرة أخلاقية ؟

منصور :

ـ بل لأروى لك تجربة إنسانية مؤلمة .

منير :

ـ لست مستعدًا لسماع روايات ، فأنا مشغول ووقتى ضيق .. والآن تفضل بالانصراف .

منصور :

ـ اسمع منى أولًا ، وبعدها سأنصرف ، ولن تجد بعد ذلك من يقول لك كلمة واحدة ، فى ذلك الأمر الذى تنويه ، ولتستمر فيما اخترته لنفسك كما تشاء .

قال (منير) متأففًا :

ـ تفضّل قل ما عندك .. ولكن اختصر ، فوقتى ضيق .

منصور :

ـــ منذ سنوات بعيدة كان هناك رجل متزوّج من امرأة رائعة ، أحبته وأحبها ، وأنجب منها طفلاً وطفلة . كانا كفيلين بأن يملآ عليه حياته ويسعداه ، ويكونا سندًا له فى شيخوخته ، والنبع الذى ينهل منه الحب والدفء والحنان فى وحدته ، بعد أن انفض عنه الجميع ، لكن الرجل لم يقدّر قيمة النعمة التى منحها الله له ، وجحد بها ، لم يقدر وقتها قيمة الزوجة والأبناء والأسرة ، ومسئوليته كأب نحوهم ، فترك نفسه لأصحاب السوء ، يصطحبونه إلى سهراتهم ، ويقودونه إلى رذيلة تعاطى المخدرات ، حتى تحوّل على أيديهم إلى مدمن ، فأهمل عمله ، وتوقّف عن الإنفاق على أسرته ، بل ترك زوجته تعمل بدلاً منه ؛ لتنفق عليه وعلى أولاده ..

ويا ليته قابل ذلك بشىء من التقدير ، وحرّك فيه شيئًا من نخوة الرجولة ، أو الإحساس بمسئولية الأب ، لكنه أحسّ بالعجز والضعف ، أمام زوجته وأولاده ، فدفعه ذلك إلى مقابلة حرصهم عليه وتحملهم له ، مع كل ما سبّبه لهم من هموم ومتاعب ، بالمزيد من الأذى والقسوة على زوجته الصابرة الوفية ، وعلى أبنائه ، ورفض كل محاولاتها لمساعدته على

العلاج ، والتخلّص من ذلك الداء اللعين ، وأصبح يسلبها حتى تلك النقود القليلة ، التى كانت تجمعها من عملها لدى الآخرين ، والإعانة التى كان يرسلها إليها أخوها ، والتى أراقت ماء وجهها من أجلها ، كى تنفق منها على إطعام أسرتها ، وتعليم أبنائها .. أخذ يسلبها تلك النقود ، ويستخدم فى سبيل ذلك كل ما يعنّ له من قسوة ، لكى ينفق منها على سهراته ، ورذيلة الإدمان التى تمكّنت منه ..

كان يشعر فى كل ليلة ، يعود فيها إلى منزله بالندم ، ويُغلق على نفسه الباب ؛ ليبكى على نفسه أسفًا ، على ما صار عليه الحال ، بالنسبة له ولأسرته ، ثم يقسم على أن يتوقف عن الرجوع إلى تلك العادة الرذيلة ، وأن يعود إلى عمله الذى أهمله ، وإلى ممارسة دوره كأب ، وأن يعوّض زوجته وأولاده عن كل ما سببه لهم من متاعب وآلام ، لكن سرعان ما يجد نفسه فى الليلة التالية ، وقد نسى ما عاهد نفسه عليه ، وعاد إلى رذيلته المذمومة ، فقد كان أعجز من مقاومة ذلك الداء ، وبالرغم من محاولات شقيق زوجته المستمرة ؛ لإبعادها هى وأولادها عن ذلك الأب المدمن وشروره ، وإقناعها بأن تأتى لتعيش معه هى وأولادها ، لتبقى فى رعايته . إلا أن الزوجة

المخلصة ، التى لم تتوقف عن حب زوجها ، بالرغم من كل شىء ، كانت ترفض أن تتخلّى عنه ، وكانت تردّد دائمًا أن لديها أملًا فى إصلاحه ، وعندما سمع الزوج ذات يوم شقيق زوجته ، وهو يهدّدها بقطع أى معونة عنها وعن أولادها ، ما لم تترك ذلك المنزل ، وتأتى لتعيش فى منزله ، تاركة ذلك الزوج المدمن ، جلس يفكّر ، وهو ينصت إلى بكائها فى الغرفة المجاورة .. لقد كانت تحصل من أخيها على الجانب الأكبر من تلك النقود ، التى تنفق منها على نفسها وعلى أبنائها ، وامتناع أخيها عن معاونتها بتلك النقود سيعنى مزيدًا من الشقاء والحرمان لأبنائها ولها ..

كان أمام أمرين ، إما أن يتوقّف عن ذلك الداء الرذيل ، ويعود إلى عمله ، وينفق على أسرته ، وهو ما حاول أن يجربه فعجز عن تنفيذه ، وإما أن يستمر فى تركه لأسرته تواجه ذلك الشقاء ، ويستمر فى قيامه بدور البلطجى ، الذى يستولى على النقود القليلة التى تتوافر فى المنزل ، من أجل الإنفاق منها على المخدر ، وهو الشىء الذى كان يجد نفسه مضطرًا إليه اضطرارًا ..

كانت مقاومته لنفسه ، وعودته إلى عمله بإصرار وعزيمة ، من الأمور الشاقة والصعبة ، خاصة بالنسبة لرجل مدمن ،

ولكنه لم يكن أمرًا مستحيلًا ، إذا كان صادق العزيمة بالفعل ، وإذا كان لديه من الإخلاص ما يماثل زوجته ، وإصرارها على التحمل ، لكنه اختار الأمر السهل ، الذى لا يبعده عن المخدر الذى استولى عليه ، وفى نفس الوقت يمكن أن يكون عاملًا مساعدًا فى إنقاذ هذه الأسرة ، فجمع حاجاته ذات ليلة ، وهجر المنزل .. هجره ولم يعد إليه أبدًا .. كان يظن أنه بذلك يساعد أسرته ، وينقذها من الضياع ، فلا يضطر إلى ممارسة دور البلطجى ، واستعمال القسوة والعنف كل ليلة ؛ للحصول على ثمن المخدر ، من النقود القليلة التى تتوافر لدى زوجته ، وفى نفس الوقت يتيح لها أن تعيش بجوار أخيها ، بعيدًا عنه فى مناخ نظيف ، يمكن أن يوفر لها ولأبنائها حياة آمنة وسعيدة ومستقرّة ، فلن يعود هناك مبرر لبقائها بعد رحيله ، وأحسّ أيضًا أنه بذلك ينقذ نفسه ، من إحساسه بمرارة العجز والضعف والمهانة ، أمام زوجته وأولاده ، والتى كان يراها ماثلة فى عيونهم ، جنبًا إلى جنب ، مع نظرة الكراهية ، التى كان يراها فى عينى ابنه الصغير ، كلما عامله أو عامل أمه بقسوة ، وكلما تصادف ورآه ، وهو يعود كل ليلة من سهراته فاقد الوعى والإحساس .. وكما قلت لك : لقد اختار الطريق السهل ؛ لينقذ

به أسرته وكبرياءه المهانة ، ونظرات الكراهية فى عيون ابنه ..
وهو طريق الهروب ، دون أن يلجأ إلى الطريق الصحيح ، الذى كان يمكن له به أن يحفظ كرامته ورجولته ، ويصون به أسرته ، وهو مقاومة النفس ، والإصرار على التوقف عن ذلك الداء اللعين ..

وأسلم ذلك الرجل نفسه إلى تجار السموم ، فتحوَّل على أيديهم من مدمن إلى مروِّج أيضًا ، إذ كان بحاجة إلى نقود ، يصرف منها على إدمانه ، ولم يكن أمامه سوى أن يعمل لحساب أولئك الذين يجرعونه السم ، إلى أن ألقى القبض عليه ، وأودع السجن .. وكان عليه بعد ذلك ألا يخرج من المنزل ، الذى ضمه وضم أبناءه فقط ، ولكن من حياتهم أيضًا .. وإلى الأبد ..

إنه لم يجلب لهم سوى المعاناة والشقاء والألم ، فلا أقلّ من أن يبعدهم عن أية صلة تربطهم بأب وزوج مجرم ، يمكن أن يشينهم ..

وهكذا قرر أن يبعدهم عن حياته تمامًا ، وأن يصبح بالنسبة لهم ميتًا ، وهو على قيد الحياة ..

ولم يكن هذا بأى حال من الأحوال تضحية أو إيثارًا منه ، بل كان عليه أن يدفع ثمن ما اقترفته يداه فى حقهم ، وبعد أن

أصبح غير جدير بأن يكون أبا وزوجًا ورب أسرة ، وبعد أن أصبح لا يشرفهم لا فى ماضيهم ولا فى حاضرهم ولا فى مستقبلهم .. ومرَّت سنوات طوال .. سنوات ذاق فيها ذلك الرجل مرارة الوحدة والحرمان من أسرته ، ومن دفء الحب والحنان ، الذى يجمع بين كل رجل وزوجته ، وبين كل أب وأبنائه ..

كان قد غادر السجن ، ثم غادر بعدها البلاد أيضًا ، وبقى مستمرًّا فى عهده مع نفسه ، أن يكون ميتًا بالنسبة لهذه الأسرة ، وألا يظهر فى حياتها مرة أخرى ، على الرغم من شفائه من رذيلة الإدمان ، وعودته إلى الحياة الشريفة .. كان بمقدوره أن يتزوَّج مرة ثانية ، وأن يكون له أبناء ولكنه قرر أن يدفع الثمن كاملًا ، بالإضافة إلى أنه لم يحب طوال حياته ، ولم يكن قادرًا على أن يحب غير زوجته ، التى تحمّلت من أجله الكثير ..

ولكن ذات يوم ، شعر أن هذا أكثر من احتماله ، خاصة وقد تقدَّم به العمر ، وأحسَّ بدنو أجله ، وبدا له أنه قد كفَّر عن خطيئته فى حق أسرته بما يكفى ، وأنه قد آن الأوان ليلتقى بزوجته وأبنائه مرة أخرى ، بعد أن أضناه الفراق ، وبعد أن عاش كل تلك السنوات الطوال محرومًا من نعمة الأبوة ..

لكن عندما عاد ، وجد أنه لا يستطيع أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء ، وأنه سيبقى حتى آخر يوم من عمره يدفع ثمن خطاياه ، فالزوجة ماتت ناقمة عليه ، والابن تنكّر له ، وحكم عليه بأن يبقى ميتًا بالنسبة له ، وابنته التى لا تعرف بوجوده حتى الآن .. وكان عليه أن يتحمّل ذلك الوضع ، فى مقابل أن يبقى على مقربة منهما ، فالابن لم يغفر له ذنبه ، وأفهمه أن الأوان قد فات بالنسبة له ، لكى يستعيد دور الأب ، وأن ظهوره فى حياته وحياة الابنة مرة أخرى فيه ما يشينهما ..

وهكذا كُتِب على الأب مرة أخرى أن يجرِّب مرارة الحرمان ، ولكنه حرمان أشد قسوة ، فليس هناك أقسى من أن ترى أبناءك أمامك ، وأنت محروم منهم ...

محروم من أن تسمع منهم كلمة بابا .. تلك الكلمة السحرية ، التى يتمنى كل أب أن يسمعها من أبنائه .. محروم من أن تضمهم إلى صدرك ، ومن أن تشعر بحنانهم وحبهم ، وتشاركهم سعادتهم وأحزانهم ، وأحدهم يعرفك وينكرك فى قسوة والآخر يجهل أنك أبوه .

وعند هذه النقطة صمت (منصور) ..

وانتهى حديثه .

* * *

١٠ ـ سر الرجل الغامض ..

صمت (منير) قليلًا ، وهو يطرق برأسه إلى الأرض ، ثم نظر إلى (منصور) قائلًا :

ـ قصة مؤثِّرة ، ولكننى لا أرى لها أية علاقة بى ، فأنا لن أنفصل عن زوجتى من أجل المخدرات ، كما أننى لن أتخلّى عن رعاية أبنائى .

قال (منصور) برصانة .

لم تكن المخدرات هى السبب الحقيقى فى ضياع شمل هذه الأسرة ، وفى انفصال الأب عنها ، ولكنها العزيمة .. الاستسلام للشعور بالعجز والشعور بالهوان .. هو أن الأب أمام زوجته وأبنائه .. وهوانه على نفسه ، وهذا هو نفس الشىء الذى يدفعك إلى التخلّى عن أسرتك الآن ..

ـ الإحساس بالنقص والهوان ، أمام سلطان شقيق زوجتك ، وتلك النظرة التى ينظران بها إليك ، على أنك رجل وصولى ، لا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة ، دون الاعتماد على مساعدة ذلك الأخ ، ولم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه ، دون

الارتكان إلى نفوذه وماله ، وبدلًا من أن تثبت لنفسك وللآخرين أنك تستطيع أن تحرز ما أحرزته من نجاح ، فى مصنع (وجدى) ، وأن تحقّق طموحك دون الاعتماد عليه ، أخذت الطريق السهل ، الذى اختاره ذلك الرجل ، الذى حدثتك عنه .. قرّرت الهروب .. الهروب مع امرأة أخرى .. وإلى المجهول ، دون أن تواجه الأمر بشجاعة ، وتؤكد ذاتك بعزيمة الرجال وإصرارهم .

منير :

ــ وكيف يتأتى ذلك فى تصورك ، وأنا أعيش تحت رعاية ونفوذ (وجدى) بل وأخته ؟

منصور :

ــ أن تضرب عرض الحائط بذلك النفوذ وتلك الرعاية ، دون أن تتخلى عن زوجتك وأبنائك .

لقد أعدت له مفاتيح السيارة ، التى أهداها إليك ، فلا تحاول أن تستردها مرة أخرى إلا إذا كنت قادرًا على سداد ثمنها ..

ويمكنك أيضًا أن تطلب منه التوقف عن دفع ذلك المبلغ ، الذى يدفعه لك فوق راتبك ، للإنفاق منه على أسرتك ، وأن

تخبره بأنك قادر على تولى أمر عائلتك ، دون الحاجة إلى مساعدته ، ويمكنك أيضًا أن تطالب الجميع بالتعامل معك من خلال شخصك ، وعملك كرجل وكمهندس ناجح ، دون النظر إلى العلاقة التى تربطك بـ(وجدى) بك .

أما المنزل ، فهو من حق زوجتك ، بعد أن ورثته عن خالها ولا يقع فى دائرة مساعدات أخيها ..

هناك أشياء كثيرة يمكنك أن تفعلها ، بشرط أن تكون قويًا ، وذا عزيمة ، وأن تكون لديك القدرة على الحياة بمستوى أقل مما اعتدته وبما يتفق مع كرامتك ، حتى تستطيع أن تصل إلى ما تصبو إليه بعرقك وكدك واجتهادك ، دون الحاجة إلى الاعتماد على زوج أختك فى أى شىء ..

وقتها فقط يمكنك أن تنظر إلى عيونهم وأنت مرفوع الرأس ، دون إحساس بالنقص أو الضعف .

ووقتها فقط ستشعر باحترامهم ، واحترام الآخرين ، واحترامك لنفسك ، واحترام أبنائك لك ، وليس بالهرب والتخلى عن أسرتك .

وهزّ (منير) رأسه ، قائلا وكأنه يرفض قبول هذا الاقتراح :

ـ أنت لا تفهم شيئًا .. إننى أحب تلك المرأة ، التى سأتزوجها .. لقد وعدتها ، ولم يعد هناك مجال للتراجع .

منصور :

ـ إنك لم تحبها كما تتصوَّر ، بل وجدت فيها ما أحسست أنك قد افتقدته فى زوجتك أخيرًا .. احترامها واعتمادها عليك كرجل .. هذه هى الحقيقة .. وصدقنى إن زوجتك تحبك أكثر من أية امرأة أخرى فى العالم ، وليس هناك ما يمكن أن يعوضك عنها بأى حال من الأحوال ، أما عن الوعود ، فليس هناك ما هو أهم وأبقى من ذلك الوعد ، المفترض أنك التزمت به ، يوم اقترنت بتلك السيِّدة ، التى أصبحت أم أبنائك ، بالحفاظ عليها ورعاية أبنائك وأسرتك ، والإبقاء عليهم دائمًا فى كنفك وحمايتك .

قال (منير) بضيق :

ـ أعتقد أننى قد سمعت من المحاضرات والروايات ما يكفى اليوم .

وقال (منصور) بهدوء :

ـ وأنا لم يعد لدى ما أقوله ، فالأمر أصبح متروكًا بعد الآن لمشاعرك ، ومسئوليتك ، وضميرك .

وفتح الباب استعدادًا للانصراف ، فاستوقفه (منير) قائلًا :

ـ انتظر .

ثم تقدم نحوه ، قائلًا :

ـ هناك سؤال يحيرنى ، وأريد أن أعرف إجابته منك .

منصور :

ـ سل ما شئت .

قال (منير) ، وهو يضغط على كلماته :

ـ من أنت ؟

تنهد (منصور) قائلًا :

ـ كما ترى .. رجل عجوز وحيد ، يعمل أجيرًا لدى أخى زوجتك .

منير :

ـ لا .. لا أقصد هذا .. تلك هى الصورة التى أراها ويراها معى الآخرون .. إننى أقصد ما وراء هذه الصورة .

منصور :

ـ لا أعتقد أن ما وراء الصورة يمكن أن يفيدك بشىء ، وداعًا يا بنىّ .

وتركه وانصرف ، فى حين وقف (منير) حائرًا ، يفكّر فى أمر الرجل ، ثم لم يلبث أن ضرب بقبضته على المائدة فى قوة ، قائلًا فى حنق :

— لماذا ظهر ذلك الرجل فى حياتى فى ذلك الوقت ؟.. وفى اللحظة التى حُسِمَ فيها الأمر بالنسبة لى ؟

وسرعان ما أخذ يردّد ، وكأنه يؤكد لنفسه ما يقوله :

— نعم .. لقد حُسِمَ الأمر بالنسبة لى .. لا مجال للتراجع .

وصمت قليلًا ، ثم قال فى ضيق :

— ولكن قصته تلك ، وما خلفه وراءه من ذلك الإحساس المزعج بتأنيب الضمير .. ليتنى ما سمحت له بذلك الحديث الطويل معى ، بل ليتنى ما سمحت له بدخول المنزل منذ البداية .

* * *

كان (منصور) فى طريقه إلى منزل ابنه ، عندما توقّفت سيارة أجرة إلى جواره ، وسمع صوتًا يناديه قائلًا :

— عم (عبد التواب) .. انتظر .

والتفت (منصور) نحو مصدر الصوت ، ليرى (منير) ، وهو يهبط من سيارة الأجرة قادمًا نحوه ، ووقف أمامه يحدجه بنظرة فاحصة ، ثم قال :

— لقد عرفتك .. أنت صاحب القصة ، التى رويتها لى .. أليس كذلك ؟

ثم نظر فى اتجاه الفيلا ، وعاد ينظر إليه ، قائلًا :

— و (وجدى) .. و (فاطمة) هما ابناك ، فـ (وجدى) هو الابن ، الذى ينكرك ، ويحاول أن يخفى وجودك ، و (فاطمة) هى الابنة ، التى لا تعرف حتى هذه اللحظة أنك أبوها .

ومرّت بينهما برهة من الصمت ، لم ينطق خلالها (منصور) بكلمة واحدة ، فى حين ضرب (منير) بيده على جبهته ، قائلًا :

— يا لى من غبى .. كيف لم أستطع أن أتبيَّن ذلك ؟.. اهتمامك بـ (فاطمة) ، وتدخلك من أجلها ، وظهورك المفاجئ فى (بورسعيد) ، وتلك القصة التى رويتها .

قال له (منصور) بثبات ، وفى عينيه نظرة محذّرة :

— أنت الوحيد الذى يعرف ذلك الآن ، وسيبقى ما عرفته سرًا بيننا .. عدنى بذلك .

منير :

— لماذا ؟ إن من حقك أن تخرج من دائرة الظل ، التى

عشت فيها كل تلك السنين الطويلة ، من حقك على ابنك أن يعترف بك ، بعد أن دفعت ثمن ما اقترفته ، ومن حق ابنتك أن تعرفك .

منصور :

ـــ لم يعد لدى حقوق على أحد ، فقد تخلّيت عن حقوق بنفسى ، منذ سنوات طوال .. تخليت عنها عندما اخترت أن أتخلى عن واجباتى تجاه زوجتى وأبنائى .

منير :

ـــ هراء .. كيف تأتّى لذلك الرجل ، أن يجعلك تعمل حارسًا فى منزله ، ليعاملك الجميع بهذه الصفة ، وهو يعلم أنك أبوه ؟

كيف سمح لنفسه أن يخفيك عن ابنتك ، وهى التى طالما تساءلت عنك ، وكانت تردّد أنها لا تعلم ما إذا كنت حيًا أم ميتًا ؟

منصور :

ـــ أعتقد أنه قد تصرّف التصرّف الصحيح ، فماضىّ يمكن أن يلحق به ضررًا كبيرًا ، أرجوك يا بنىّ ، عدنى ألا تبوح بهذا السر .

ابتسم (منير) قائلًا :

ـــ كيف أضيع منى فرصة كهذه ، للانتقام لنفسى ، وابتزاز (وجدى) بك ؟

منصور ؟

تبدّلت ملامح الأب ، وهو يقول :

ـــ ماذا تقول ؟

منير :

ـــ ألست رجلًا وصوليًا وانتهازيًا ؟.. هل يوجد أفضل من هذه الفرصة لانتهازها ، وابتزاز ثرى كبير مثل (وجدى) ؟

قال (منصور) بصرامة :

ـــ لو فعلت ذلك فتأكد أننى سأقتلك .

منير :

ـــ تقتلنى ؟!

منصور :

ـــ نعم ، فلم يعد لدى فى هذه الدنيا ما أخسره ، ولم يعد لى فى هذه الدنيا الآن ما يهمنى سوى ابنى .

وصمت برهة ثم قال :

ـــ لكنى واثق أنك لن تفعل ذلك .

منير :

— نعم .. لن أفعل ذلك .. ليس من أجل تهديدك ، ولكن لأثبت لك أننى لست بالرجل الوصولى ولا الانتهازى أبدا .

هزّ (منصور) رأسه مؤمنًا ، وهو يقول :

— لقد كنت أعرف ذلك منذ الوهلة الأولى ، التى رأيتك فيها ، فالسنون والتجارب علمتنى كيف أحكم على الأشخاص جيدًا .

منير :

— لقد أردت اللحاق بك ، قبل أن تعود إلى الڤيلا ؛ لأخبرك بأننى قد عدلت عن القرار الذى اتخذته .. إننى قادم معك ، وسأعود إلى منزلى مع (فاطمة) زوجتى .

ابتسم (منصور) قائلًا :

— إنك لم تأخذ وقتا طويلًا ، للتفكير فى هذا .

منير :

— والفضل فى هذا يرجع إليك يا عم (منصور) .. هل تسمح لى بأن أناديك باسمك الحقيقى ؟

فتح (منصور) ذراعيه ، ليحتضن زوج ابنته ، قائلًا فى امتنان :

— أشكرك يا بنىّ .. لقد أعدت لى ثقتى بقدرتى على عمل شىء من أجل أبنائى .

قال له (منير) ، وهو يضمّه إلى صدره :

— أنا الذى يتعيّن علىّ أن أشكرك يا عماه ، فقد أنرت بصيرتى ، وجعلتنى أعرف الطريق الصحيح ، الذى ينبغى علىّ أن أسير فيه ، كما جعلتنى أدرك كم أحب زوجتى وأبنائى .. هيا .. هيا بنا .

وانطلقا معًا .

* * *



١١ ــ وحان الرحيل ..

طرقت (فاطمة) الباب عدة طرقات ، قبل أن يسمح لها أبوها بدخول غرفته ، ووجدته وقد انتهى من صلاته ، فاقتربت منه ، قائلة بصوت يشفّ عن الحزن :

ــ سمعت أنك ستترك عملك هنا ، وتغادر (بورسعيد) .

أجابها (منصور) فى هدوء :

ــ نعم .. سأرحل صباح الغد .

قالت فيما يشبه التوسّل :

ــ ألا يمكنك أن تغير رأيك ، وتبقى ؟

هز رأسه ، قائلًا بنفس النبرة الهادئة :

ــ مع الأسف .. لا يمكننى ذلك ، وأنا فى طريقى إلى مغادرة (مصر) بعد أيام قليلة ، والسفر إلى إحدى البلاد العربية .

فاطمة :

ــ هل ستعمل هناك ؟

منصور :

ــ نعم .

فاطمة :

ــ ولكنك ... أعنى ... أنت ...

وأكمل (منصور) عبارتها المبتورة ، قائلًا :

ــ طاعن فى السن ، ولست فى عمر يسمح لى بالعمل فى تلك البلاد .. لكن عملى هناك لن يكون مرهقًا ، ولن يزيد عن العمل الذى مارسته هنا .. فقد سبق لى العمل فى تلك الدولة ، ولى أصدقاء ومعارف هناك سيرحبون بى .

فاطمة :

ــ هل يمكنك أن تترك لى عنوانك ، حتى أراسلك فى تلك الدولة ، التى ستذهب إليها ؟

منصور :

ــ عندما يستقرّ بى المقام هناك سأرسل إليك عنوانى .

اقتربت (فاطمة) من أبيها ، لتنحنى فجأة على يده وتقبلها ، فسحب يده سريعًا ، وهو ينظر إليها بدهشة ، قائلًا :

ــ (فاطمة) هانم .. ماذا تفعلين ؟

وانحدرت عبرة من عينيها ، وهى تقول :

ــ مهما حاولت أن أقول ، فلا أعرف كيف أوفيك قدرك

من الشكر ، على مساعدتك لى فى محنتى ، ومساهمتك فى لَمّ شمل أسرتنا مرة أخرى .. لقد قدمت لى صنيعًا لن أنساه .

قال (منصور) متأثرًا :

ــ إننى لم أفعل شيئًا ، ولم يكن يمكننى أن أفعل شيئًا ، لولا حبك لزوجك ، وحب زوجك لك ولأولاده .. إن ما بينكما قوى ، ويجب أن يبقى قويًا ومتماسكًا حتى لا تعصف به الأهواء ..

حافظى على زوجك .. اجعليه يشعر باحترامك وتقديرك دائمًا ، يبقى ملكًا لك .. وإياك أن تبخسيه قدره ، أو تحاولى الإقلال من رجولته وكرامته ، وإلا خسرته إلى الأبد .. هذه هى النصيحة الوحيدة ، التى أستطيع أن أقدّمها لك قبل رحيلى .

فاطمة :

ــ هل يمكننى أن أطلب منك صنيعًا آخر ، من أجلى ؟

منصور :

ــ أنا تحت أمرك يا (فاطمة) هانم .

فاطمة :

ــ أرجوك .. توقف عن مناداتى بكلمة هانم هذه .. قل لى يا بنيتى ..

قال ، وقد ازداد تأثرًا :

ــ كما تريدين يا بنيتى .

فاطمة :

ــ يا لها من كلمة حُرمت منها طويلًا ، وعلى الرغم من أننى سمعتها من عدة أشخاص ، إلا منك فأشعر أنها تبدو مختلفة منك أنت بالذات .

وحاول (منصور) أن يختصر الموقف ، قائلًا :

ــ ما هى الخدمة التى تريدينها منى ؟

نظرت إليه متوسّلة ، وهى تقول :

ــ أن تبقى ولا تغادر (بورسعيد) .. أرجوك .

قال لها (منصور) ، وهو يحاول مقاومة مشاعره :

ــ لا أستطيع يا بنيتى .. لا أستطيع .. صدقينى .

فاطمة :

ــ ولا حتى من أجل خاطرى .

منصور :

ــ لو كان الأمر بيدى ما فارقتكم لحظة واحدة ، فأنا أشعر أننى مشدود إلى هذا المكان .. لقد تعلقت بـ(وجدى) ، وبالأولاد .. ولكن لابد أن أسافر .

قالت (فاطمة) :

ـ كم سأفتقدك ، وكم سأفتقد حنانك الأبوى ، الذى حُرمت منه طويلًا .

وحوّل وجهه عنها ؛ ليخفى عينيه المغرورقتين بالدموع ، قائلًا :

ـ أنا أيضًا سأفتقدك كثيرًا .

وفى أثناء ذلك دلف (وجدى) من الباب المفتوح ، إلى داخل الغرفة ، ويبدو أنه فوجئ بوجود أخته ، حيث نظر إليها بدهشة ، قائلًا :

ـ (فاطمة) .. هل أنت هنا ؟

قالت وهى تمسح تلك العبرة ، التى انحدرت على وجنتها :

ـ جئت لأودع عم (عبد التواب) قبل رحيله .

غادرت الغرفة حزينة ، فى حين اقترب (وجدى) من أبيه ، وعلى وجهه علامات التردد ، وما لبث أن قال ، بعد برهة من الصمت :

ـ هل أنت مصر على الرحيل ؟

قال (منصور) وهو يتظاهر بترتيب أمتعته :

ـ نعم .

وجدى :

ـ لماذا ؟ أعنى ما الذى جعلك تفكّر فى مغادرتنا هكذا فجأة ، ودون سابق إنذار ؟

أجابه (منصور) بهدوء :

ـ أليس هذا ما كنت تتمناه ؟

وجدى :

ـ نعم .. ولكننى ظننت أن الأمر سيستغرق وقتًا أطول من ذلك .

إنك لم تبق معنا سوى شهر واحد .

منصور :

ـ أعتقد أنه يكفى .. واطمئن لن أسبب لك إزعاجًا بعد اليوم ، فكما ظهرت سأختفى ، ولن ترانى بعد ذلك .. يمكنك أن تمارس حياتك فى اطمئنان وهدوء ، وكأنك لم ترنى أبدًا .

قاوم (وجدى) إحساسه المبهم بالذنب ، وهو يزداد اقترابًا من أبيه ، قائلًا :

ـ هل أنت مسافر ، إلى إحدى الدول العربية حقًا ؟

منصور :

ـ نعم .

وجدى :

ـ وما هذه الدولة ؟

منصور :

ـ (السعودية) .. لقد سافرت إليها من قبل .. سأقضى بضعة أيام بـ (القاهرة) أولا ، ثم أسافر :

وجدى :

ـ حسنًا .. متى يحين موعد سفرك ، حتى أحضر لنقلك إلى المطار بسيارتى ؟

ابتسم (منصور) فى مرارة ، قائلًا :

ـ هل أنت حريص على راحتى حقًا ، أم تريد أن تطمئن إلى مغادرتى البلاد ؟ .. قلت لك اطمئن ، سواء كنت فى (القاهرة) أو فى أية دولة أخرى فى العالم ، تأكد سأختفى من حياتك إلى الأبد .

قال (وجدى) ، وعلى وجهه ملامح الصدق :

ـ إننى لا أقصد ذلك .. يمكنك أن تبقى إذا أردت ، وكيفما شئت فأنا لم أعد أشعر بانزعاج لوجودك .

تأمل (منصور) وجه ابنه مليًا ، ثم قال بعد برهة من الصمت :

ـ هل تريد منى أن أبقى حقًا ؟

قال (وجدى) ، محاولًا التظاهر باللامبالاة :

ـ إذا أردت .

تحول (منصور) عنه ، ليعود إلى ترتيب أمتعته ، وهو يقول :

ـ أشكرك على كل حال .

دنا (وجدى) من أبيه ، قائلًا ، وقد تحولت اللامبالاة فى صوته إلى اهتمام حقيقى :

ـ إذا قلت لك : إننى أريد منك أن تبقى ؟

استدار (منصور) ليواجه ابنه ، وهو يقبض على أكتافه بيديه ، قائلًا :

ـ حقًا يا (وجدى) .. هل تريد منى أن أبقى معك حقًا ؟

وقف (وجدى) واجمًا ، لا يدرى ماذا يقول .. لقد أحسّ بتيار عاطفى يسرى فى نفسه تجاه أبيه ، ولكن شيئًا ما كان يجعله يصر على مقاومة هذا التيار ..

لقد خشىَ أن يعود فيعلن رغبته الحقيقية فى بقاء أبيه ، فيظهر فى صوته .. ما يُنبئ عن تلك العاطفة الحقيقية ، ويعلن عن انهزام كراهيته لذلك الأب ، الذى حرمه من حنانه ورعايته وأبوته سنوات طوالًا ..

ظل (وجدى) واجمًا ، لا ينطق بكلمة ، حتى تحرَّرت أكتافه من يدى أبيه ، الذى تقلَّصت ملامحه فجأة ، فأسرع بالجلوس على أحد المقاعد ، وسأله (وجدى) فى قلق :

ــ ماذا بك ؟

تحامل الأب على نفسه ، لكى يخفى تلك التقلصات ، التى بدت على وجهه قائلا :

ــ لا .. لا شىء مجرد صداع بسيط .

وجدى :

ــ هل أحضر لك أى مسكِّن ؟

منصور :

ــ لا داعى لذلك ، فأنا معتاد هذا الصداع ، الذى يذهب ويجىء .

وجدى :

ــ لقد نسيت أن أشكرك ، على ما فعلته من أجل (فاطمة) .

منصور :

ــ هل نسيت أننى أبوها ؟ الأب لا يتلقى شكرًا على مساعدته لابنته .

وأمسك برسغه ، وهو جالس فوق مقعده ، قائلا :

ــ أريد منك أن تعتنى بـ (فاطمة) وترعاها جيدًا فى غيابى ، فلن أستطيع مساعدتها مرة أخرى فى المستقبل ..

إنك شقيقها الوحيد ، وليس لها أحد سواك .. أريد منك أن تقوم بمسئوليتك تجاهها . ليس كشقيق فقط ، ولكن كأب أيضًا ، وليس بدافع حبك لذاتك وأنانيتك ، التى كشفتها فيك ، ولكن بدافع حبك لها ، وحرصك عليها ..

هذا هو مطلبى الوحيد منك .. أن تكون الأخ والأب فى آن واحد ، .

وهزَّ (وجدى) رأسه مؤمنًا على كلام أبيه ثم قال :

ــ إذن فأنت مصمِّم على الرحيل .

منصور :

ــ نعم .. سيكون ابتعادى فى صالحك وصالح أختك ، إذ إن ماضىَّ لا يشرف أحدًا منكما .. لقد أدركت أنك كنت محقًّا فيما قلته لى فى البداية .

أخرج (وجدى) من جيبه رزمة من النقود ، ليقدِّمها إلى أبيه ، قائلا :

ــ أعتقد أنك ستحتاج إلى بعض النقود معك ، حتى تنتهى من ترتيبات سفرك .

لكن (منصور) أزاح يد ابنه ، الممتدّة بالنقود ، قائلًا :
ــ احتفظ بنقودك ، فلست بحاجة إليها .
حاول (وجدى) الاعتراض ، قائلًا :
ــ ولكن ...
لكن أباه قاطعه ، قائلًا :
ــ قلت لك : لست بحاجة إلى نقود ، فيمكننى تدبير أمرى بنفسى .
وجدى :
ــ كيف ؟.. إننى كما أرى ...
ونهض (منصور) ليقوده إلى الباب ، قائلًا وهو ينهى الحديث :
ــ من الأفضل أن تعود الآن لزوجتك ، قبل أن تقلق عليك ، وتتساءل عن سرّ وجودك هنا .
توقَّف (وجدى) عند الباب ، قائلًا :
ــ متى ستغادر المنزل ؟
منصور :
ــ فى الصباح .. ولا أريد وداعًا ، فسوف أرحل وأنت نائمٌ ، حتى لا أسبب إزعاجًا لأحد .

وجدى :
ــ هل أنت واثق أنك لست بحاجة إلى نقود ؟.. إننى مستعد أن أعطيك أى مبلغ تطلبه .
منصور :
ــ أشكرك .. لكن صدقنى ، لست بحاجة إلى أى مبلغ من المال .. هيا هيا .. انصرف .
وخطا (وجدى) خارج الباب ، لكن (منصور) جذبه من ذراعه قائلًا :
ــ انتظر .
ووقف يتأمله قليلًا ، وكأنه يريد أن يملأ عينيه منه قبل أن يفارقه ، ثم أحاط عنقه بيده ، وهو يضمه إليه ، وقد احتقنت عيناه بالدموع ، قائلًا :
ــ سامحنى يا بنى ، فقد أخطأت فى حقك كثيرًا .
تراجع (وجدى) برأسه إلى الوراء ، وقد هزّته عاطفة أبيه .. أراد أن يقول شيئًا ، ولكن لسانه لم يساعده ، دفعه أبوه بعيدًا عنه ، وهو يقول ، محاولًا التخلص من ذلك الموقف العاطفى :
ــ هيا .. هيا عد لبيتك وزوجتك .
ومن عينيه انحدرت قطرة دمع ..
قطرة كبيرة .

١٢ ـ عذاب الضمير ..

نظر (منصور) إلى ساعته ، وكانت قد تجاوزت الخامسة صباحًا بعدة دقائق ، وعادت عضلات وجهه تتقلّص ، وقد أحسَّ بذلك الألم الشديد يهاجم أحشاءه ، ولكنه حمل حقيبته ، وتحامل على نفسه ليتسلل إلى داخل الفيلا ، حيث صعد إلى الدور العلوى ، وفتح باب غرفة نوم حفيده ..

كان (وائل) مستغرقًا فى النوم ، وقد بدا فى نومه كالملاك الحالم ، عندما اقترب جده من فراشه ، وجثا على ركبتيه إلى جواره ؛ ليقبِّل جبهته هامسًا :

ــ كم سأفتقدك أيها الملاك الصغير .. ليتك تعرف أننى أحبك كثيرًا .

وأخذ يمسح بيديه على شعره ، وهو يتأمّله بنظرة حنون ، ثم نهض واقفًا وهو يستعد لمغادرة الحجرة ، لكنه فوجئ بزوجة ابنه واقفة لدى الباب ، فهمس لها قائلًا :

ــ آسف يا (نجلاء) هانم .. يبدو أننى قد أقلقتك .. ولكننى أردت أن أرى (وائل) قبل رحيلى .

قالت له وهى تصحبه خارج الغرفة :

ــ وهل كنت تريد أن ترحل ، دون أن تودّعنا ؟

منصور :

ــ هذا أفضل .. لقد تعلّقت بكم كثيرًا ، وعندما يحب شخص آخر ، يفضّل أن يرحل دون وداعه ؛ لأن لحظات الوداع غالبًا ما تكون مؤثرة ومرهقة للعواطف ، ومع ذلك ومادمت قد التقيت بك قبل رحيلى ، فلا مناص من أن أودِّعك ، شاكرًا لك حسن معاملتى ، طوال الفترة التى قضيتها هنا .

نجلاء :

ــ ألن تخبرنى عن سبب رحيلك المفاجئ هذا ؟

منصور :

ــ لقد قلت لك من قبل يا هانم .. إننى مضطر للسفر .

(نجلاء) :

ــ لا أعرف لماذا لا يبدو لى هذا السبب مقنعًا ؟ وعلى أية حال إذا كان الأمر متعلقًا بالمال ، فيمكننى أن ..

لكنه قاطعها قائلًا :

ــ ليس للأمر أية علاقة بالمال .. إنه ارتباط لابد منه .

وهمّ بهبوط درجات السلم ، عندما أمسكت ساعده ، قائلة :

ــ عم (عبده) .

وصمتت قليلًا قبل أن تستطرد :

ــ أريد منك أن تعرف قبل رحيلك أننا أيضًا أحببناك ، وتعلّقنا بك ، وكنا نتمنى ألا تتركنا وترحل .

نظر إليها مليًّا ، ثم قال :

ــ بارك الله فيك يا بنيتى .

ثم أسرع بهبوط درجات السلم ، ووقفت (نجلاء) تراقب رحيله من نافذة غرفة نومها ، إلى أن غاب عن عينيها ، ثم عادت إلى الفراش ، حيث كان زوجها راقدًا وقد استلقى على أحد جنبيه ، وهو ينظر إلى الجهة المقابلة للنافذة ، وسألها فى صوت خافت قائلًا :

ــ هل رحل ؟

سألته باستغراب :

ــ هل أنت مستيقظ ؟

وجدى :

ــ نعم .

قالت معاتبة :

ــ ولم تحاول أن تنهض لتوديعه ؟

قال ، وقد ازداد صوته خفوتًا :

ــ لا أعتقد أنه كان سيرحب بذلك .

نجلاء :

ــ هذا ما قاله ... ولكن كان يمكنك على الأقل أن تعرض عليه توصيله إلى موقف السيارات .

وجدى :

ــ وهذا أيضًا رفضه .

التفتت إليه قائلة :

ــ لا أعرف لماذا يسيطر على ذلك الشعور بأن هذا الرجل يمت لك بصلة ما ؟..

تصرفاته وأفعاله ..

وصمتت ، وقد ارتسمت على وجهها ملامح الحيرة ، ثم قالت :

ــ لقد كان ينظر إلى (وائل) بحنان بالغ ، حتى أننى خشيت أن يختطفه ، ويأخذه معه قبل أن يرحل .

وموضوع (فاطمة) .. لقد سمح لنفسه بالتدخل فى الأمر ،

وإصلاح العلاقة بينها وبين زوجها ، كما لو كان فردًا فى العائلة :

وأنت .. لقد رأيتك متأثرًا هذا المساء لرحيله ، بالرغم من أنك نادرًا ما تتأثر لفراق أحد ، ولا تتميز بذلك الحس العاطفى ، وهذا شيء غريب بالنسبة لأجير عندك ، بالرغم من أننى لا أنكر أننى أيضًا تأثرت لقراره بالرحيل عنا ، فقد أحسست أن وجوده فى منزلنا يضفى عليه لمسة ما .. لمسة غريبة لم نعهدها فى أحد ممن يعملون لدينا ، أو ممن نعرفهم .

وازدادت اقترابًا منه ، وأمسكت ساعده قائلة :

ـ (وجدى) .. أما زلت مستيقظًا ؟

لكنها لم تتلق جوابًا منه ، وإن أحسّت بجسده يرتعد ، فقرّبت وجهها من وجهه ، ورأت عينيه محتقنتين بالدموع ، فهتفت غير مصدقة :

ـ (وجدى)؟!.. هل تبكى ؟

نهض من فوق الفراش ، ليجلس على حافته ، وهو يدير لها ظهره ، قائلًا بعد أن أطلق زفرة قصيرة :

ـ (نجلاء) .. ألا تكفّين عن ذلك الفضول ؟

ولكنها قفزت من الفراش ؛ لتواجهه قائلة :

ـ هل تعرف أن هذه هى المرة الأولى ، التى أرى فيها الدموع فى عينيك ؟

مدّ يده ليزيل أثر الدموع من عينيه ، قائلًا وهو يشيح بوجهه إلى الجهة الأخرى :

ـ إن عينىّ متعبتان قليلًا .. ربما بسبب الإجهاد وقلة النوم .

ولكن (نجلاء) ألحّت عليه :

ـ لا أعتقد أن للإجهاد وقلة النوم علاقة بتلك الحالة ، التى تبدو عليها .

نهض من فراشه دون أن يردّ عليها ، ليجلس فوق أحد المقاعد ، وهو يشعل لنفسه سيجارة ، فى حين ظلت (نجلاء) جالسة فوق حافة الفراش ، وهى تقول :

ـ هل تعرف السبب الحقيقى فى تلك الأزمة ، التى كادت تودى بزواج أختك ؟..

إنها لم تصدق أن زوجها يحبها حبًا حقيقيًا ، ولم تكن تثق به وبنواياه تجاهها .. بل كانت موقنة أنه لولاك ، ولولا مساعداتك له ، ما استمر هذا الزواج ، وذلك هو الخطأ الفادح ، الذى كاد يعصف بزواجهما ؛ لأن (منير) كان يحبها حقيقة ، ويتألم لأنها لا تثق بذلك ، وأنت ترتكب نفس الخطأ ، فأنت لا تثق بحبى لك ، وفى تمسكى بك ، بالرغم

من كل شيء ، ومن أى شيء ، وتنسى أننى أحببتك وتزوجتك ، بالرغم من كل عيوبك ، التى غفرتها لك ، وعملت على إصلاحها ، لكننى لم أفكر للحظة واحدة أن أتركك بسببها .. إنك تنظر لى دائمًا على أننى أنتمى إلى أسرة ثرية ، ومن أصل عريق ، وأنك يجب أن تبدو أمامى دائمًا فى الصورة المثلى ، وفى المستوى اللائق ، حتى لا يؤثر ذلك على ارتباطنا .. وأنه يتعيَّن عليك ، من أجل ذلك ، أن تخفى عنى الكثير من أسرار حياتك ، وبعضًا من تلك الهموم ، التى تصل بك إلى حد البكاء ، كما رأيت هذه الليلة فى عينيك ، ونسيت أننى امرأتك وزوجتك ، وحبيبتك قبل أى شيء آخر ، وأننى أتألم ؛ لأنك لا تثق بى ، وبحبى لك ، بالقدر الذى أستحقه ، وتعمل على إبعادى عن مشاركتك ما يتعيَّن علىَّ أن أشاركك فيها ، كزوجة أحبتك ، ورضيت أن تشاركك حياتك بكل ما فيها ، وبكل ما تحتويه من أسرار ، تحرص على إخفائها عن الآخرين ، يوم أن وافقت على الاقتران بك .

سألها بصوت واهن :

ــ ماذا تريدين منى أن أقوله ؟

اقتربت من المقعد الجالس عليه ، لتجثو أمامه ، وهى تضع يديها على ركبتيه ، قائلة :

ــ الحقيقة .

سألها ، وقد عادت عيناه تحتقنان بالدموع :

ــ أية حقيقة ؟

نجلاء :

ــ من هو هذا الرجل ، الذى جئت به إلى منزلنا فجأة ، ورحل عنا فجأة ؟

لاذ (وجدى) بالصمت ، دون أن يعطى جوابًا ، وظلَّت (نجلاء) تحدق فيه برهة ، وهى تنتظر منه أن يقول أى شيء بلا جدوى ، ثم ما لبثت أن نهضت ، وهى تستعد لمغادرة الغرفة ، قائلة :

ــ مع الأسف .. كنت أظنك تثق بىَ أكثر من ذلك :

ولكنه أمسك برسغها ، قائلًا وقد سالت العبرات على وجنتيه :

ــ إنه .. أبى .

ظلت (نجلاء) صامتة لحظات ، وهى تحاول استيعاب ما قاله ، ثم ما لبثت أن عادت تجثو أمامه ، قائلة :

ــ كنت أعرف وأشعر بأن هناك صلة ما .. صلة قوية تربطك بهذا الرجل ، ولكننى لم أكن أتصوَّر ...

وبدا تفكيرها مشوشًا ، وهى تردِّد قائلة :

— والدك؟!.. غير معقول !

ثم نظرت إليه قائلة :

— ولكن كلنا نعلم أن والدك قد مات .. لقد أخبرتنا بذلك .

قال (وجدى) بصوت مرتعش:

— لم تكن هذه هى الحقيقة .

نجلاء :

— ولكن .. لماذا ؟. لماذا أخفيت عنا هذه الحقيقة ، ولماذا تركته يعمل لدينا حارسًا ، وأنت تعلم أنه أبوك ؟

وجدى :

— كانت لدى أسبابى .

بدت (نجلاء) وقد تخلّصت من صدمة المفاجأة ، وهى تقول بصوت غاضب .

— لا أعتقد أنه هناك أى سبب فى الدنيا ، يجعلك تنكر وجود أبيك ، وترضى له هذا الوضع المهين :

وجدى .

— سأروى لك القصة من البداية ، ولكنى أوافقك على أنه مهما كانت الأسباب ، فقد كنت نذلًا للغاية فى تصرّفى هذا

وأخذ يروى لها القصة ..

كلها ..

* * *

بعد أن انتهى من رواية قصته ، صمتت (نجلاء) قليلًا ، ثم قالت :

— إننى لن أتجادل معك فى كل ما حدث فى الماضى .. بل لن أناقشك فى تصرفاتك مع أبيك بالرغم من أننى أعترف بأنها قد صدمتنى ، فلم أكن أظن أنك بكل هذه القسوة ، بالرغم من كل المبررات التى سقتها ، ولكن سأسألك سؤالًا واحدًا : ماذا ستفعل الآن ؟

نظر إليها (وجدى) ، وكأنه يتطلّع إلى الإجابة فى عينيها ، وقال :

— وماذا تنتظرين منى أن أفعل ؟

قالت بدهشة :

— لا أعتقد أنك ستستمر فى ارتكاب هذا الخطأ الفادح .. يجب عليك الآن أن تصحح كل الأخطاء التى ارتكبتها .. لابد

أن تعرف (فاطمة) بوجود أبيها ، ويجب أن تكشف لها عن شخصيته ، فهذا حقها ..

ثم يتعيّن عليك بعد ذلك أن تعثر على أبيك ، وأن تعيده إلى هنا ؛ ليأخذ مكانه الصحيح ، ويستعيد ما فقده منك ومن أختك من حب واحترام .. لابد أن تعيد إليه أبوته المفقودة ، وبنوتك التى حُرِمَ منها طويلًا .. يجب أن يأخذ كل شىء مساره الصحيح ، منذ هذه اللحظة .

قال ، وقد ارتسم الخوف فى عينيه :

ـ ولكن وضعى ومكانتى فى المدينة ، والانتخابات التى أسعى لخوضها .. إن أبى له سابقة إجرامية .. ثم ماذا سيقول الناس عنى .. بل ماذا ستقول (فاطمة) ، عندما تعلم أننى أخفيت عنها وعنهم الحقيقة ، وأظهرت أبى بمظهر الأجير ، الذى يعمل لدى ؟. هناك أشياء كثيرة متشابكة ومعقدة ..

إننى سأفقد احترام الناس وتقديرهم لى ، إن لم يكن بسبب ماضى أبى ، فسيكون بسبب فعلتى معه .. يجب أن أضع كل هذا فى حساباتى .

وانفعلت (نجلاء) ، قائلة فى غضب :

فلتذهب حساباتك وكل تلك الأشياء إلى الجحيم .. المهم

الآن هو والدك .. الرجل طاعن فى السن ، ولابد أنه رحل عن هنا ، وهو حزين منكسر القلب لجفائك معه ، وحرمانه من استعادة حبك وحب ابنته ، الذى حرم منه طويلًا .. ألم تفكر لحظة واحدة فى هذا ؟ ألم يحرّك فيك شيئًا ؟..

ما الذى ستجنيه من احترام الناس لك ، إذا ما فقدت احترامك لنفسك ؟.. وبأى ضمير ستواجه نفسك بعد الآن ؟. بل كيف سيمكنك أن تنظر إلى نفسك فى المرآة ، بعد هذا الجرم الفظيع ، الذى ارتكبته فى حق أبيك ، الذى قد يموت بعيدًا عنك دون أن تراه أو تدرك موته ، وفى قلبه غصة منك ومن جحودك ؟ هل ستكتفى وقتها ببعض العبرات ، التى تتساقط فوق وجنتيك ، كما تفعل الآن ؟

وهبّ (وجدى) من مقعده ، وهو يقول فى انفعال :

ـ كفى يا (نجلاء) .. كفى .. إنك تعذبيننى بهذه الكلمات .

وقفت (نجلاء) إلى جواره ، وأحاطت ذراعه بيديها ، وهى تقول :

ـ سيكون العذاب أضعافًا مضاعفة ، إذا لم تسع إلى إيقاظ ضميرك ، وإصلاح الأمر مع أبيك ، وردّ اعتباره إليه ..

صدقنى إننى أقول لك ذلك ؛ لأننى أحبك ، وأخشى عليك من عذاب قاس لا يرحم .. عذاب الضمير ؛ ذلك لأننى أعرف أنه بالرغم من كل شىء ، فأنت لست بهذه القسوة والعقوق والأنانية ، التى تحاول أن تبدو عليها .. هيا .. أسرع .. أسرع قبل فوات الأوان .

* * *



١٣ ـ اللقاء القصير ..

بذل (وجدى) جهدًا كبيرًا ، حتى توصّل إلى عنوان أبيه ..

كان المنزل قديمًا متواضعًا ، ووقف (وجدى) أمام الشقة ، التى يقطنها أبوه ، واضعًا سبّابته على الجرس ، دون أن يجيبه أحد ، حتى فُتِحَ باب الشقة المجاورة ، ليخرج منها أحد الأشخاص متسائلًا :

ـ هل تبحث عن أحد ؟

قال (وجدى) :

ـ أليست هذه هى شقة (منصور الدهشورى) ؟

أجابه الجار :

ـ نعم .. ولكنه ليس هنا الآن .. من أنت ؟

وجدى .

ـ إننى ابنه .

نظر إليه الجار بدهشة ، قائلًا :

ـ ابنه ؟ ولكنه لم يخبرنا بأن لديه أبنًا .

وجدى :

ـ لقد حالت الظروف دون حضورى ، فأنا أقيم فى (بورسعيد) .

قال الرجل :

ـ على كل حال مفتاح الشقة معى ، فلقد اعتاد أن يترك معى مفتاحا آخر للشقة ، فى الأيام الأخيرة ، لأقضى له بعض الطلبات ، ومعاودته إذا ألم به مرض حال دون خروجه .

وجدى :

ـ هل هو مريض ؟

أجابه الرجل قائلا :

ـ لقد بدأ يتردد على الطبيب كثيرًا فى الأيام الأخيرة .. سأحضر لك المفتاح لتنتظر عودته .

ولكنه ما لبث أن توقف ، وفى عينيه نظرة متشككة ، قائلا :

ـ هل تسمح لى بأن أرى بطاقتك أولا ؟

قدم له (وجدى) البطاقة ، ووقف الرجل يقرأ بياناتها بدقة ثم ردّها إليه ، وقد علت وجهه ابتسامة حرج ، قائلا :

ـ لا تؤاخذنى يا بنى .. ولكنها أمانة ، ويتعين على المرء منا أن يكون حذرا فى مثل هذه الظروف .. سأحضر لك المفتاح

غاب الرجل لحظة بالداخل ، ثم عاد يقدم له مفتاح الشقة قائلا :

ـ تفضل .. أعتقد أن والدك لن يتأخر كثيرًا ، فهو لا يغيب فى الخارج غالبًا ، ولا يخرج إلا إذا اضطرته الضرورة .. هل يمكننى تقديم أية خدمة لك ؟

وجدى .

ـ أشكرك .

وفتح باب الشقة ، وأغلقه خلفه وهو يتأمل حجرات الشقة وأثاثها المتواضع ، حتى استقرت عيناه على مكتب صغير ، تناثرت فوقه مجموعة من الصور والأوراق والخطابات ، وقف يتفحصها وقد ارتدت به الذاكرة إلى الوراء ..

كانت صورًا لوالدته ، وهى فى عنفوان شبابها ، وصورا لها مع أبيه بعد الزواج ، كما كانت تضم صورًا له ولأخته وهم بعد أطفال صغار ، وبعضها كانت تضمه مع أبيه ، كما عثر بينها على صورة حديثة له ، أخذها أبوه من منزله قبل رحيله ..

وبدافع من الفضول ، أخذ (وجدى) يقلب الأوراق والخطابات المفتوحة ، التى وجدها على المكتب ، إلى جوار الصور ، بعد أن جلس على المقعد الذى يواجهه .

وانهمك ..

انهمك تمامًا ..

* * *

فى أثناء ذلك كان (منصور) قد انتهى من الفحص الطبى ، الذى أجراه لدى الطبيب ، حيث نهض من فوق مائدة الفحص ليرتدى ثيابه ويقترب من الطبيب ، وهو يقول :

ــ قل لى الحقيقة يا دكتور .. لم يعد هناك جدوى .. أليس كذلك ؟

نظر إليه الطبيب حائرًا ، لكنه لم يلبث أن أطرق برأسه ، قائلًا :

ــ نعم .. لقد تمكن المرض الخبيث من أحشائك .

استقبل (منصور) الخبر بصمت مهيب ، استمرّ لحظات ، ثم قال :

ــ كنت أعرف ذلك وأحسّه ، فقد كانت آلامى فى الفترة الأخيرة غير محتملة .

قال له الطبيب بصوت حزين :

ــ لقد بذلنا كل ما بوسعنا ، لكن المرض استفحل ، والأمر متروك الآن بين يدى الخالق (سبحانه وتعالى) .

سأله (منصور) :

ــ كم تبقى لى ؟

أجابه الطبيب :

ــ هذا فى علم الله ، ولكن بحساباتنا الطبية أمامك بضعة أيام قليلة .

منصور :

ــ كل ما أطلبه منك الآن هو بعض المسكنات ، لكى توقف ذلك الألم الرهيب ، الذى يهاجمنى من آن لآخر ، فقد أصبح الألم فوق احتمالى إلى أن تنفذ مشيئة الله .

الطبيب :

ــ مع الأسف .. حتى المسكنات لن تخلصك من آلامك تمامًا ، ولكن ربما استطاعت التخفيف بعض الشىء .. سأكتب لك بعضها . قدم له الطبيب التذكرة الطبية ، قائلًا فى أسى :

ــ هل ترغب فى أن أبلغ أحدًا من أقاربك بالأمر ؟

صمت (منصور) قليلًا ، ثم نهض واقفًا وهو يقول :

ــ أشكرك .. ولكن ليس لى أحد يمكنك إبلاغه .

ثم اغتصب ابتسامة مريرة على وجهه ، قائلًا :

ــ أعتقد أن هذا أفضل ، حتى أرحل عن هذه الدنيا بهدوء دون أن أسبب الحزن لأحد .

* * *

كان (وجدى) فى أثناء ذلك مستغرقًا فى قراءة أوراق وخطابات أبيه بدموع حارة ، فقد كشفت له تلك الأوراق والخطابات عن مفاجأة غير متوقعة ، مفاجأة زلزلت كيانه ، وهزت ضميره .. لقد عرف من هذه الأوراق ، والخطابات المتبادلة بين أبيه وخاله ، حقيقة الدور الخفى ، الذى قام به أبوه لمساعدته دون أن يدرى ، فقد أمدّ أبوه خاله بالمال اللازم ، لإنقاذ مصنع الزجاج من الإفلاس والبيع ، بعد أن تراكمت عليه الديون والأعباء ، وهو الذى أسهم فى تطوير وتنمية ذلك المصنع ؛ ليتحوّل إلى مؤسسة كبيرة ، عن طريق المساعدات الخفية ، التى كان يقدمها إلى خاله لإضافتها إلى حسابات الشركة ، وذلك لعلمه أن (وجدى) يعمل بها ، وأن المؤسسة ستعود إليه بعد أن اشتراها سرًا من خاله ، وإن أبقى عليه ظاهرًا مالكًا لها ، كما أنه هو الذى أضاف بعض الأرصدة المالية لحساب خاله قبل أن يموت ، لعلمه بأن ذلك المال سيئول إليه ، وإلى أخته بعد وفاته ، وكل تلك الأوراق والخطابات تكشف عن ذلك ، كما كشف عن مبلغ السبعين ألف جنيه ، التى تبقت معه ، والتى أودعها البنك باسم ابنه وأبناء (فاطمة) بالتساوى ، بعد أن حرر الشيكات وكتب خطابًا قصيرًا لجاره ،

كان يهم بتسليمه له لتقديمه إليه ، وإلى أخته بعد موته .. لقد فعل أبوه كل ذلك من أجله ، ومن أجل أخته .. كان يرعاهم دائمًا بصورة مستترة ومن بعيد ، وهو الذى تصوّره أنانيًا .. قاسيًا .. جاء يبحث عنه طمعًا فى ماله ..

لقد قابل كل ذلك بجحود بالغ ، ونعته بأحطّ الصفات دون أن يحاول الأب أن يدافع عن نفسه مرة واحدة ، أو يكشف عن الحقيقة ..

ولكن لماذا ؟ لماذا فعل ذلك ؟

وفى تلك اللحظة فُتِحَ باب المنزل ، حيث فوجئ (منصور) بوجود ابنه ، فهتف قائلًا :

ـــ (وجدى) .. ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ وكيف عثرت على مكانى ؟

اقترب منه (وجدى) حاملًا فى يده الأوراق والخطابات ، وهو يقول :

ـــ ليس هذا هو المهم .. المهم أن تقول لى أولًا .. لماذا أخفيت عنى الحقيقة ؟

وضع (منصور) الأدوية التى يحملها معه فوق المكتب ، قائلًا بغضب :

ـ كيف سمحت لنفسك أن تقلّب فى أوراق ؟

ردَّ عليه (وجدى) :

ـ لقد عثرت عليها مصادفة ، وأنا أقلّب الصور .

أحسّ (منصور) بالآلام تعاوده فى أمعائه ، فجلس على المقعد القريب ، وهو يحاول أن يخفى تلك التقلصات ، التى ظهرت على وجهه ، وعاد (وجدى) يلح عليه فى سؤاله قائلًا :

ـ قل لى .. لماذا أخفيت عنا الحقيقة كل هذه السنين ؟ لماذا تركتنا نكرهك ؟.. ولماذا تركتنى أتعامل معك بكل هذا العقوق بالرغم من كل ما فعلته من أجلى ؟

أجابه (منصور) :

ـ لأننى خشيت أن تظنوا أن هذه النقود ، التى أنفقتها من أجلكم ، من الاتجار بالمخدرات ..

كنت أعرف أنكم لن تصدقونى ، حينما أقول لكم إن هذه الأموال قد حصلت عليها عن طريق حلال تمامًا ، فبعد خروجى من السجن سافرت إلى (السعودية) ، وعملت فى خدمة أحد الأمراء هناك .. خدمته بكل إخلاص ووفاء .. حتى صرت أقرب إليه من أخيه ، وعندما مات الرجل ورَّثنى جزءًا من

ثروته ، فعدت بها إلى (القاهرة) وقرّرت أن أستغلها فى رعايتكما ، وتعويضكما عن تقصيرى فى القيام بمسئوليتى كأب وزوج ..

تتبعت أخباركم ، واستطعت الاتصال بخالك بوسيلة ما ، حينما علمت أنه ينوى بيع مصنعه ، الذى عيَّنك للعمل فيه ، وقدّمت له المساعدة اللازمة لإنقاذ المصنع من الإفلاس ، ثم اشتريت منه المصنع ، بعد أن اتفقنا على إخفاء هذا الأمر ، وأن يبقى فى الظاهر المالك الفعلى للمصنع ، الذى سرعان ما تمكّنت ، بمساعدة جهود خالك وأموالى ، من تحويله إلى مؤسسة كبيرة ، وكنت أعرف أن ذلك كله سيئول إليك وإلى أختك فى النهاية ، وما دمت قد عرفت الحقيقة ، فقد أودعت كل ما تبقى لدى من مال باسم ابنك وأبناء (فاطمة) فى أحد البنوك ، وكنت سأكلف أحد الأشخاص تسليمها إليك بعد موتى ، لكن يمكنك أن تأخذ الشيكات الآن ، ما دمت موجودًا هنا .

قال (وجدى) غير مصدق :

ـ ولكن لماذا لم يخبرنا خالى بذلك ؟

منصور :

ـ لأننى جعلته يقسم على القرآن أمامى ، بأن يبقى ذلك السر خفيًا بيننا ، ولا يخبر به أحدًا مدى الحياة ، كما أجبرته على أن يقسم أمامى بألا يخبر أى مخلوق عن وجودى ، أو لقائى به .

وتنهّد (وجدى) ، قائلًا :

ـ والآن فهمت السر فى تبدّل موقفه منك ، خلال السنوات الأخيرة ، وكيف كان يقول لأمى دائمًا أن تتذكرك بالخير ، وألا تظلمك فى حكمها عليك ، وعندما كانت تسأله عن السر فى تحوله هذا كان يلوذ بالصمت . ولكن لا يمكن أن تكون قد أخفيت عنا وجودك ، وكل ما قدّمته من أجلنا ، خشية أن نظن أنها أموال جاءت عن طريق المخدرات فقط .. فقد كان يمكنك أن تحاورنا ، وأن تثبت لنا حقيقة المصدر ، الذى جاءت منه هذه النقود .

منصور :

ـ ليست خشيتى من ألا تصدقونى فقط ، هى التى جعلتنى أخفى الحقيقة عنكم ، ولكن ماضىَ الذى لا يشرّف أيضًا .. لقد وضعت ذلك فى تقديرى ، وكنت أعرف أن ظهورى فى حياتك ، وأنا أحمل على أكتافى ذلك الماضى ، سيتسبّب فى الإضرار بمستقبلك ومكانتك التى وصلت إليها ، كما يلحق الضرر بأختك وأبنائها ..

وعندما جئت إليك فى (بورسعيد) ، تعمّدت أن أبدو أمامك صعلوكًا متشردًا ، جاء يبحث لنفسه فقط عن مأوى وعمل ، حتى أكون قريبًا منك ومن أختك ، وكنت مقتنعًا قبلك بأن يظل وجودى وحقيقتى سرًا خفيًا ، فلم أكن أريد سوى أن أكون قريبًا منكما ، وأن أنعم بصحبتكما فى أيامى الأخيرة ، وقبل أن أفارق الحياة .

قال (وجدى) بقلق :

ـ تفارق الحياة ؟!.. ماذا يعنى هذا ؟

قال (منصور) سريعًا ، وهو يحاول معالجة زلة لسانه :

ـ أعنى أنه لم يبق فى العمر مثل ما مضى .. لقد تقدمت فى السن كما ترى ، ومن يدرى ؟

وفوجئ بابنه يخرّ أمامه على الأرض ، جاثيًا على ركبتيه ، وقد أمسك بيديه ليقبلهما فى حرارة ، قائلًا :

سامحنى يا أبى .

ابتسم الأب ابتسامة صافيه ، مردّدًا :

ـ أبى .. إنها المرة الأولى التى أسمعها منك منذ سنوات طويلة .

انهال (وجدى) تقبيلًا ليدى أبيه وركبتيه ، قائلًا :

ــ إنك أعظم أب فى الوجود ، فقد أقدمت على الكثير من التضحيات ، فى الوقت الذى قابلت أنا فيه كل ذلك بمنتهى العقوق والجحود . إننى لن أغفر لنفسى أبدًا .

رفع الأب وجه ابنه إليه ، قائلًا :

ــ لا تحمِّل نفسك أكثر مما تحتمل فكل منا أخطأ فى حق الآخر ، وقد نسيت كل شىء الآن ، وأنا لم أكن أريد منك سوى هذا العطف والحنان ، الذى أراه منك الآن .

قال (وجدى) :

ــ أما أنا فلن أسامح نفسى ؛ لأننى ...

قاطعه الأب ، وهو يساعده على النهوض ، قائلًا والابتسامة على وجهه :

ــ ما رأيك لو أعد لك بعض الحلوى الشرقية ، التى كنت تحبها من يدى وأنت طفل صغير ؟

وضحك (وجدى) ، وقال :

ــ أوافق .. ولكن بشرط أن تعدها لى هناك ، فى (بورسعيد) فى منزلى .

تراجع الأب فى مقعده ، وبدت على وجهه ملامح الرفض ، قائلًا :

ــ (بورسعيد) ؟!.. لكننى لن أستطيع أن أعود معك .

قال (وجدى) بإصرار :

ــ لماذا يا أبى ؟ لقد جئت إلى هنا لأعود بك .. لم يعد هناك ما نحرص على إخفائه .. لقد قلت الحقيقة للجميع لزوجتى وأختى ولكل الذين يعرفوننا فى (بورسعيد) .

قال له الأب ، وقد بدا مذعورًا :

ــ لماذا فعلت ذلك ؟

وجدى :

ــ لأن هذا هو ما كان يجب أن يحدث منذ البداية .. إنك أبى ، ويجب أن يعلم الجميع بذلك ، والآن أنا أكثر الأبناء فخرًا بك .

ترقرقت الدموع فى عينى الأب ، وهو يقول :

ــ ولكن يا بنى .. أنا ..

قاطعه (وجدى) متوسلًا ، وهو يقول :

ــ أرجوك يا أبى عد معى .. إن (فاطمة) والأولاد وزوجتى والجميع فى انتظارك .. عد يا أبى .. عد .

* * *

مرت ثلاثة أيام على وجود (منصور الدهشورى) فى منزل ابنه ، لم يتركه الجميع خلالها لحظة واحدة ، إلا تلك الساعات ،

التى يقضيها فى النوم ، فقد أصبح محاطًا ليلًا ونهارًا بابنته وزوجها ، وابنه وزوجته وأحفاده .. أحاطه الجميع بحبهم وحنانهم ورعايتهم ، وكأنهم يعوضونه ويعوضون أنفسهم عن كل سنوات الفراق ، وكل ما حُرِمَ منه من حب وحنان .. وكان (منصور) حريصًا خلال تلك الأيام على إخفاء آلامه وحقيقة مرضه عنهم ، إذ كان يهرع إلى غرفته مختفيًا عن الأنظار ، كلما شعر بذلك الوحش الذى لا يرحم ، وهو يهاجمه لينهش أمعاءه ..

وفى إحدى الأمسيات ، وبينما كان جالسًا أمام التليفزيون ، وقد تعلقت (فاطمة) بذراعه ، وأحاط به أحفاده من كل جانب ، يداعبونه ويداعبهم ، وبينما جلس (وجدى) على الأرض إلى جواره ، وأحاط زوجته بإحدى ذراعيه ، إذا به يستشعر ذلك الألم وقد هاجمه من جديد ، وعلى نحو أكثر قسوة ، فتخلص من يدى ابنته قائلًا وهو يحاول إخفاء آلامه :

ــ لقد سهرت اليوم أكثر مما يجب .. سآوى الآن إلى غرفتى .

قالت (فاطمة) محتجة :

ــ الوقت ما زال مبكرًا يا أبى .

أجابها ، وهو يتحامل على نفسه :

ــ سامحينى يابنيتى .. فإننى أشعر بحاجة إلى النوم .. تصبحون على خير .

وأحسَّ (وجدى) بشىء من القلق تجاه أبيه ، فنهض ليلحق به قبل أن يصعد إلى غرفته قائلًا :

ــ هل تشعر بشىء يا أبى ؟

ابتسم الأب ، برغم آلامه الهائلة ، قائلًا :

ــ لا .. لا شىء .. لا تقلق فأنا فقط بحاجة إلى النوم .. هيا عد لزوجتك .

ولكن (وجدى) لم يتخلص من قلقه ، وهو يقول :

ــ هل أصحبك إلى غرفتك ؟

ظل الأب محتفظًا بابتسامته ، وهو يقول :

ــ لماذا يا ولدى ؟ هل سأضل الطريق إليها ؟.. إن أباك لم يصل إلى هذه الدرجة من الكبر .. هيا عد إليهم ، حتى لا تثير قلقهم .

وتحرك (وجدى) عائدًا بخطوات متردِّدة ، فى حين أخذ الأب يتحامل على نفسه ، وهو يصعد فى درجات السلم ، ويحسّ بألم لا يطاق فى أحشائه .

كان يريد أن يصل إلى غرفته ، قبل أن يلحظ أحد آلامه المضنية ، لكن قدميه لم تساعداه ، فقبل أن يصعد الدرجتين الأخيرتين من السلم الخشبى ، أحسّ برجفة تسرى فى كل أوصاله فنادى ابنه قائلا :

— (وجدى) :

هرع الابن ليتلقَف أباه ، الذى هوى بين ذراعيه ، وقد أصابه الذعر هاتفًا :

— أبى ما الذى حدث ؟

قال أبوه وهو يزدرد لعابه ، وقد بدا الألم رهيبًا على وجهه :

— هناك حقيقة أخيرة أخفيتها عنك .. وآن لك أن تعرفها .. إننى أموت يا بنى .

كاد (وجدى) يصرخ وهو يقول :

— ماذا ؟

لكن (منصور) وضع يده على فم ابنه قائلا :

— لا تثر انتباه الآخرين .. احملنى إلى فراشى أولا .

وحمل وجدى أباه إلى غرفته ، حيث أرقده على الفراش ، وهو يجثو إلى جواره ، وقال الأب ، وقد اختفت ملامح التقلص من على وجهه لتحل محلها ملامح الارتياح :

— الحمد لله .. أننى وجدت ذراعاك لتحملانى .. فى اللحظة التى أحتاج إليها .

وتدفَّقت الدموع من عينى الابن المذعور ، وهو يقول :

— أبى ... ما نوع هذا المرض ؟ ومتى أصبت به ؟.

قال الأب :

— منذ سنتين تقريبًا .. لم أشعر بخطورته وقسوته فى البداية ، لكنه سرعان ما تمكَّن منى ، وبدأ يصارعنى صراعًا لا هوادة فيه ، ولكننى لا أشعر الآن أنه قد انتصر على ، فلم يكن الموت هو ما يخيفنى حقًّا ؟ لكننى كنت بحاجة فقط لكى أعوض سنوات الحرمان التى عانيتها بعيدًا عنك وعن أختك .. كنت بحاجة لحبكما ووجودكما بقربى ، وهذا هو سبب مجيئى إلى هنا ..

وكنت أخاف أن أفارق الدنيا وأنتما ناقمان علىَّ ، دون أن تعرفا كم أحبكما ، وكم تعذبت لفراقكما ...

والحمد لله .. لقد قضيت الأيام الأخيرة محاطًا بكل الحب والحنان ، الذى افتقدته وتمنيته .. واستطعت أنت وأختك وزوجتك وزج أختك وأولئك الأحفاد الأشقياء أن تعوضونى فى تلك الأيام القليلة ، عن كل حرمان السنين ، والفضل فى هذا يرجع إليك ، فشكرًا لك يا بنىَّ .. شكرًا لك ؛ لأنك أسعدت أباك العجوز فى أيامه الأخيرة ، وجعلته يفارق هذه الدنيا ، وعلى وجهه ابتسامة .. والآن مرحبًا بالموت .

أنهمرت دموع الابن فى غزارة ، قائلًا :

— أبى .. لا تقل هذا .. ما زال أمامنا الكثير من الأيام والشهور والسنين لنعوّضها .. ما زلنا بحاجة إليك .. نعم نحن بحاجة إليك أكثر من حاجتك إلينا فلا تقل هذا .. ولا تفارقنا ..

ما زال لدىّ الكثير لأقوله لك وتقوله لى .. ما زلت بحاجة لحبك وحنانك ورعايتك ، أكثر مما أحتجت إليه وأنا طفل صغير .. فلا تتركنى .

وامتدّت يد الأب تتحسّس قسمات وجه ابنه ، وعلى وجهه تلك الابتسامة الصافية ، إلا أنها لم تلبث أن تهاوت إلى جانبه بلا حراك ، وتجمدت معها الدموع فى عينى (وجدى) ..

حتى الدموع عجزت عن أن تعبر عن أحزانه فى هذه اللحظة .

لقد حُرِم من أبيه طويلًا .. وكان لقاؤه معه قصيرًا ، لم يستطع أن يمنحه كل ما أراد أن يمنحه إياه من حب ، تكفيرًا عن ذنبه فى حقه ، وإظهارًا لذلك الحب الدفين فى أعماقه ، بالرغم من الصورة الظالمة ، التى انطبعت فى ذهنه عنه ، كما لم يستطع أن يحصل منه على التعويض الكافى لحرمانه منه ، كل هذه السنين .

لم تكن نقوده هى التى يحتاج إليها ، ولا المنصب الذى وصل إليه ، وامتلاكه لكل تلك الثروة التى تحت يديه ، والتى كان لأبيه فضل كبير فى امتلاكه لها .. بل كانت حاجته الحقيقية ، التى كشفها خلال الأيام الأخيرة ، هى وجوده إلى جواره .. نعم .. لقد كشف أنه يحب أباه أكثر من أى شىء آخر .. بل إنه كان مستعدًا للتضحية بكل ما يملك ، مقابل أن يبقى معه وإلى جواره ، ولو لعام واحد فقط ..

ولكن هكذا كانت مشيئة الله ، واختار القدر أن يكون فراقهما طويلًا ، ولقاؤهما قصيرًا ، فى اللحظة التى كشف فيها (وجدى) كل هذا الحب ، الكامن فى أعماقه نحو أبيه .

وجذب (وجدى) الغطاء ؛ ليسدله على وجه أبيه قائلًا :

— وداعًا .. وداعًا يا أبى الحبيب .

وترك لدموعه العنان .

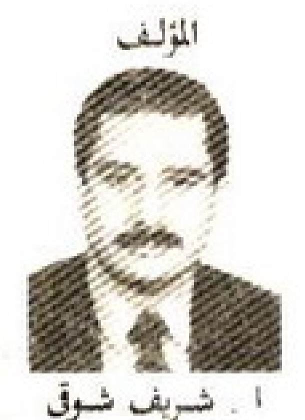
* * *

[تمت بحمد الله]

— سلسلة رومانسية رفيعة المستوى —



المؤلف



أ. شريف شوق

السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب
أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

أبى الحبيب

فرّق القدر بين (وجدى)
وأبيه فراقًا طويلًا
مفعمًا بالحزن والمرارة.
وعندما التقيا تفجّرت كل ينابيع الحب فى
قلبيهما، ولكن القدر لم يمهلهما طويلًا.
إذ جاء اللقاء قصيرًا، قاصرًا عن
تعويض كل سنوات الفراق..



الثمن فى مصر ١٢٥ ق
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم